13 me Année No. 633

Lundi - 20 - 8 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٣٣ « القاهرة في يوم الإثنين ١٢ رمضان سنة ١٣٦٤ — ٢٠ أغسطس سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

الحرية والقنبلة الذرية

للأستاذ عباس محمود العقاد

ختمت الحرب بالقنبلة الذرية

فعسى أن يبدأ بها عهد سلم موفور الأمن، مكفول الحرية.

ولست ضعيف الأمل في بلوغ الغاية من هذه الطريق المرهوبة، لأن الاستعمار والاستغلال هما آفة هذا العصر في علاقات الدول وعلاقات الأفراد. ولا بد أن يتأثر الاستعمار والاستغلال معاً بعد انطلاق قوة المادة من خزائنها التي كانت محبوسة فيها. فنرجو أن يكون التغير المنظور للتحسين لا للتسوئة، فإن التسوئة لا تنفع أحداً من المستعمرين ولا المستغلين، وفيها ضير محقق عليهم أجمعين

ينشأ الاستعمار من الحاجة إلى الخامات والوقود والأسواق، ومن أجل هذه المطالب تسيطر الدول الكبرى على سبل المواصلات وتحتل المسالح البعيدة وتجور على سيادة الأمم الضعيفة بما تشاء من المعاذير والتعلات

وينشأ الاستغلال من احتكار أصحاب الأموال الوافرة لموارد الصناعة والوقود، وقدرتهم على تسخير الأيدي العاملة في صنع أدوات المعيشة بأرخص الأجور

فإذا استغنت الدول عن النفط والفحم وسائر أنواع الوقود، أو خفت حاجتها إليها، وإذا أمكن تحويل العناصر بالطاقة الهائلة التي تنطلق من خزائن الذرات على اختلافها، وإذا تيسر استبدال بعض المزروعات ببعض المصنوعات، أو تيسر الحصول على المزروعات بجهد قليل ونفقة أهون من نفقتها اليوم، وإذا صحب هذا الانقلاب ما سيصحبه حتما من تغير العلاقات بين الأمم، فهل نغلو في الرجاء إذا قلنا إن الأقوياء يستغنون يومئذ عن التحكم في الضعفاء، وإن الاستعمار ينقضي شيئاً فشيئاً، لأنه عدوان لا تدعو إليه الضرورة ولا يساوي ما فيه من عنت وما يدور حوله من نزاع؟

كذلك نرجو أن يبطل الاستغلال إذا أمكنت إدارة المصانع بغير الحاجة إلى رؤوس الأموال الكبيرة، أو بغير الاعتماد على شركات الاحتكار والاغتصاب. فلا حاجة إذن إلى إرهاق العمال في استخراج الثمرات والمصنوعات، ولا حاجة بالعمال أنفسهم إلى العناء الشديد لاستحقاق الأجور الكافية لتحصيل أسباب المعيشة الرخية، فقد تتيسر الأشياء لطالبيها بأرخص الأثمان وأيسر الوسائل، لأن الطاقة الذرية كفيلة بتيسيرها من غير إرهاق في العمل ولا إغلاء للتكاليف

نعم، إن فلق الذرة لا يزال وديعة مكتومة بين أيدي فئة قليلة من رجال الدولتين الأمريكية والبريطانية، ولكنه سر

الحكومات والعلماء وليس بسر المحتكرين وأصحاب الأموال ؛ ولا مصلحة لحكومة من حكومات هذا العهد في تسليم هذا السر إلى شركات الاحتكار لاستخدامه في تسخير الملايين من الصناع والأجراء ، وإذا تسرب السر إلى الصناعات السلمية ، فلا موجب لانحصاره في أيدى أصحاب الأموال وأنصار الاستغلال ، لأنه قد يتاح لأصحاب الأموال القليلة كما يتاح لأصحاب الأموال الكثيرة ، وقد ينتفع به الأفراد كما ينتفع به كبار المساهمين في الشركات .

ولا شك أن تكاليف العدد والأجهزة التي تستخدم في شق الذرة ستنقص مع الزمن وتدخل في متناول العدد الأكثر فالأكثر من المنتفعين بها ، وبخاصة إذا تعدى الأمر معدن الأورانيوم إلى غيره من المعادن التي قد تجدى في توليد الطاقة وإن لم تبلغ في قوتها مبلغ هذا المعدن المنزور

ونود أن نتفاءل ولا نود أن نتشاءم ، لأن التشاؤم هنا عبث ضائع على كل حال ، فمتى وقعت الطامة الكبرى التي لا طامة مثلها ولا طامة بعدها ، فإن غناء الباكيات قليل كما قال الشاعر القديم

* * *

وللقنبلة الذرية علاقة أخرى بقضية الحرية غير هذه العلاقة ، وهي توكيد العقم الذي تصاب به العقول المنتجة في بلاد الاستبداد ، أو في غير البلاد الديمقراطية على الإجمال

فليس أكثر من معامل التجربة في ألمانيا وإيطاليا واليابان وروسيا الشيوعية ، وبعض الحكومات التي تخضع للحكومة الإجماعية

وليس في العالم دولة تهتم باختراع الأسلحة الجائحة كما تهتم بها دول المحور ولا سيما الألمان واليابان

كل جهود هذه الدول منصرفة إلى استكمال العدة بكل وسيلة من وسائل الغلبة وكل حيلة من حيل العلم والصناعة

والعلم الإنساني بين أيديها كما هو بين أيدى الأمم للديمقراطية في الولايات المتحدة أو في بلاد الإنجليز

وربما استطاعوا أن يحيطوه بالأسرار ويهيئوا له جو البحث في أمان من عيون التجسس والاستطلاع ، ولم يتيسر ذلك بمثل هذه السهولة في بلاد البحث الحر والصحافة المطلقة والمناقشات التي لا تنقطع في الأندية العامة والمجالس النيابية

وكان فلق الذرة عند الألمان واليابان مسألة حياة أو موت ، لأنهم لا ينتصرون بغيره كما ظهر من وقائع الحرب التي شهدوها قبل أن نشهدها ، ولم يكن فلق الذرة مسألة حياة أو موت عند الديمقراطيين ، لأنهم قد انتصروا بغيره أو انتصروا قبل القنبلة الذرية وتلقوا عروض الصلح من اليابان قبل استخدام القنبلة الأولى ببضعة أسابيع

ومع هذه الضرورة الملحة ، وهذه العناية البالغة ، وهذه اللهفة العاجلة ، حصرت العقول في بلاد الاستبداد فلم تصنع شيئاً في هذا الباب ولا قريباً من شيء ، وعمل الديمقراطيون للحرب بعدهم بسنوات ، فإذا بهم يستعدون لها بهذا السلاح ويشهرونه على أعدائهم وهو عندهم فضول وعند أولئك الأعداء طريق النصر — بل طريق النجاة الوحيد .

لم خابت عقول المخترعين في بلاد الاستبداد وأفلحت في بلاد الحرية ؟ ألاختلاف في طبائع العقول ؟ أهناك تفاوت في مواهب الأجناس ؟

كلا ، لأن العلماء الذين عملوا لفلق الذرة منهم ألمانيون وروسيون وإيطاليون ودنمركيون ، ومنهم من بدأ البحث ومن تقدم به إلى ختامه الموفق ومن كان له فضل الاقتراح الناجح منذ سنوات .

فليس المرجع في هذا إلى اختلاف في طبائع العقول ، أو تفاوت في مواهب الأجناس ، ولكنما المرجع فيه إلى سبب واحد جامع شامل وهو جناية الاستبداد على العقل البشرى بجوه الخانق وسيطرته الغاشمة وسوء التوفيق بينه وبين الكرامة الفكرية التي يشعر بها المخترع ولا غنى له عنها في معرض من معارض التفكير .

ولم يكن هذا المخترع فلتة أو مصادفة بين المخترعات الأخرى حربية كانت أو سلمية ، ولازمة كانت في موعدها المطلوب أو غير

لازمة ... لأن القاعدة مطردة بغير استثناء يذكر فى مخترع واحد من مخترعات هذا الزمن الحديث . وحسبنا أن نلحظ الفارق بين الطائرات الألمانية أو الإيطالية وبين الطائرات الأمريكية والإنجليزية مع استغناء الإنجليز والأمريكيين بالأساطيل البحرية واعتماد الألمان على الطائرة والغواصة لمقاومة المدرعات والسفن الكبيرة . فإن الديمقراطيين دخلوا ميدان الاستعداد متأخرين فبلغوا بالطائرات على اختلافها أقصى حدود الإتقان فى وقتنا هذا ، وأصبحت قاذفاتهم ومقاتلاتهم وحارساتهم وناقلاتهم راجحة فى مجال العمل على أمثالها عند المحوريين كل الرجحان .

وما من شيء سمعناه عن أخبار الأمم التى لا تدين بالديمقراطية يدل على كساد العقول فى ظل الاستبداد كما تدل عليه تلك الأخبار التى ينشرونها عن ملايين الكتب والتصانيف التى تطبع بالملايين وتوزع كما يقولون بين الملايين . فإن تلك البلاد كانت تنجب النوابغ النابهين فى العلوم والآداب ولم يكن يطبع فيها عشر معشار هذا المقدار . فإذا توافر الغذاء وساءت « الصحة العقلية » فالجو إذن هو المسئول عن هذا الهزال ، وعليه اللوم وحده وليس اللوم على القرائح والعقول .

***

على أن القنبلة الذرية ستخدم الحرية الديمقراطية من طريق غير هذه الطرق التى قدمناها . لأنها ستحطم مذهب « كارل ماركس » كما تحطم الحصون والمعاقل التى تنقض عليها ، وهو أخطر المذاهب التى تناضل الديمقراطية فى عهدها الأخير .

ولسنا نعنى بذلك أن الديمقراطيين يحاربون الماركسيين ، وإنما نعنى به أن ظهور هذا العامل الجديد فى أطوار الصناعة يقطع السلسلة التى صاغ كارل ماركس حلقاتها وجعل الحلقة الأخيرة منها اجتماع الثروة كلها فى أيدى ملوك الصناعة واصطلاح الفاقة كلها على العمال .

قال : ومتى صار العمال إلى هذا المأزق الضنك فلا مناص لهم من الموت جوعاً أو الثورة الدموية على ملوك الفحم والحديد وأشباه الفحم والحديد .

فأقل ما تصنعه القنبلة الذرية أنها تقطع هذه السلسلة قبل حلقاتها الأخيرة ، لأنها توهن قبضة المحتكرين على عناصر الصناعة الكبرى وتخلق لهذه الصناعة عنصراً غير الفحم والحديد وغير العناصر التى يقوى على احتكارها أولئك المستغلون . .

فما أضخمها من قنبلة تلك القنبلة التى نجمت من أصغر الأشياء فى هذه الدنيا .

إنها قنبلة ناسفة عاصفة ولكنها فى عالم الأفكار والآراء أفعل ما تكون ؛ لأنها إذا فعلت فعلها فى آراء الناس وأخلاقهم لم يقف لها عائق ولم يكن تعويقها من المفيد ، ولكنها إذا أرادت أن تفعل فعلها فى عالم الأجساد وقف الناس لها أجمعون أو وجب عليهم أن يقفوا لها هناك ... وإلا فهى القيامة لا مراء .

عباس محمود العقاد

الفلسفة الإسلامية المتأخرة

للدكتور جواد علي

— ٢ —

وكتاب الأسفار من الكتب الفلسفية المهمة، وقد أكسب مؤلفه شهرة عظيمة جعلته في عداد كبار فلاسفة الإسلام . فإنك إذا ما قرأت الكتاب شعرت بأهمية المؤلف وبالمسائل العويصة المدونة فيه . وبالأفكار والنظريات الفلسفية العويصة المسطرة في صحائف السفر العظيم . تذكرك بكتب ابن سينا أو محي الدين بن العربي أو الطوسي وبأمثالهم من فلاسفة المسلمين . وقد غلط المستشرق كوبينو « Gobineau » في ترجمة عنوان الكتاب إذ توهم فظن أن المقصود من «الأسفار» السياحات ولذلك اختار كلمة «Voyage» والحال أن مقصود المؤلف من كلمة « أسفار » جمع «سفر» ومعناها الكتاب . ومقصود المؤلف من « الأسفار الأربعة » الكتب الأربعة لا السياحات الأربعة كما ظن ذلك هذا المستشرق المذكور[(١)].

راجت كتب الملاصدرا رواجاً عظيماً وشرحت عدة شروح وظلت آراؤه فيما وراء الطبيعة تحتل مكاناً بارزاً في عالم الفكر الإسلامي حتى اليوم . ولا زالت كتبه تستعمل في الجادة القديمة لمن تقدم في موضوع الفلسفة كما تستعمل كتب ابن سينا أو ابن رشد . وقد أثرت آراؤه هذه على الأخص في الهند وإيران والأفغان فأوجدت بعض المذاهب الإسلامية التي لم تلبث أن أصبحت مذاهب دينية ذات مناهج مستقلة مثل مذهب « الشيخية » المنسوب إلى الشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي المتوفى سنة ١٢٤٣ للهجرة ولسنة ١٨١٧ — ١٨٢٨ للميلاد[(٢)].

تأثر الشيخ أحمد الإحسائي بآراء الملا صدرا كثيراً فشرح بعض كتبه مثل كتاب «الحكمة العرشية» وكتاب «المشاعر»[(١)] وهو عيال على الملا صدرا على الأخص في موضوع ما وراء الطبيعة . وبالنظر إلى ما كان يظهره من غلو في بعض الآراء نفر الناس منه والتمس الشيخ حامياً له ومعينا ، وكان ذلك الحامي هو الأمير محمد على ابن فتحعلي شاه حاكم مدينة « كرمانشاه » . ولما توفى هذا الحاكم اضطر إلى مغادرة إيران والالتجاء إلى « الحائر » المقدس في العراق حيث ألف كثيراً من كتبه وشرح ما راقه من كتب الملا صدرا المهمة وبعض الكتب الأخرى[(٢)] . وقد عرف إتباع الشيخ أحمد باسم « الشيخية » وهم جماعة خاصة ظهرت في جماعات الشيعة في إيران . تزعمهم تلميذ الإحسائي ومنظم صفوف الشيخية « السيد كاظم الرشتي » أبرز تلاميذ الإحسائي على الإطلاق[(٣)] . (توفى سنة ١٨٤٤ م) . وكان هــذا السيد من أردبيل ملجأ الشيخ صفي الدين الأردبيلي المتصوف المشهور وجد الأسرة الصفوية والذي ينسبه الكتاب إلى الإمام موسى الكاظم الإمام السابع على ترتيب الشيعة الأثنى عشرية من آل البيت[(٤)] .

يروى عن الشيخية أن الإمام تجلى للسيد كاظم الرشتي في ليلة من الليالي وكان عمره إذ ذاك اثنى عشر عاماً وأشار عليه بوجوب الذهاب إلى مدينة « يزد » إحدى مدن إيران والالتحاق بحاشية الشيخ أحمد الإحسائي الذي كان يعظ ويدرس في تلك المدينة . وقد اتبع السيد أمر الإمام وذهب إلى المدينة وأصبح من تلاميذ الشيخ وأصحابه ومن أقرب الناس إليه[(٥)] . ولما غادر الإحسائي إيران ثم ترك العتبات المقدسة في العراق لأداء فريضة الحج توفى في الحجاز ودفن بالمدينة في جوار قبور الأئمة بالبقيع سنة ١٢٤٣ للهجرة[(٦)] .. وأصبح السيد كاظم الرشتي خليفة الإحسائي والنائب

(١) راجع Brown Vol 4 P, 430 Gobineau Rel' et. les Philos. 1866 P, 81. كذلك مجلة المجمع العلمي العربي عدد ١١ — ١٢ مجلد ٩ ص ٦٠٣ وما بعد .

(٢) عن الشيخ أحمد الاحسائي راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ وما بعد — أيضا رجال النيسابوري . وكان النوري ينكر فضله .
nicolas, Essai sur le Cheikhisme, Port 1, P 60, Port 2 PP, 32 — 36.
cl. Huart, in the Encyclopaedia of Islam Vol 4. P, 279.

(١) Donaldson, The Sbi, ite Religion PP, 360 — 361 .

(٢) روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ . Brown Vol 4. PP, 410. Brown Travelleis narrative PP, 197 — 8 PP, 278.

(٣) نفس المصادر Donaldsou The shi'ite Religion P, 361. Huert. Art Shaibhis Vol 4 P, 279.
Harten The Philosophi of islam P, 142.

(٤) Donaldson The Shi'ite Reli PP, 278 .

(٥) راجع nicolas Essai sur le cheikhisme Part, 22, PP, 32 — 36.
Donaldson the Shi'ite Religion P, 361.

(٦) راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ Brown P, 410 .

منا به فى الأمور . فنظم شئون « الشيخية » وألف فى الدفاع عن عقيدة أستاذه وفى توضيح قواعد المذهب الجديد إلى أن توفى بعرض أصابه ببغداد دون أن يتمكن من النص على تعيين شخص يكون خليفته من بعده وزعيم الشيخية الدينى المطاع بالنص والتعيين[١] .

فانصرفت جماعة منهم إلى الميرزا على محمد الشيرازى (ولد سنة ١٨٢٠ م — قتل سنة ١٨٥٠ م) الذى جاء بتعاليم جديدة تلتقى فى الفكرة التى استقى منها الملا صدرا تعاليمه والشيخ أحمد الإحسائى والبابية عيال على الشيخية فى آرائها وفى أفكارها الغالية ولا سيما فى نظرتها إلى الإمام المهدى وعلاقة الإمامة بالإنسان[٢]

ومن أقوال الإحسائى فى الحشر والمعاد قوله « إن هذا البدن المحسوس المركب من العناصر الأربعة يفنى ويزول ولا يعود والمحشور فى القيامة هو البدن النومى الذى تراه فى منامك . كما يقول إذا دخلت فى النوم خلعت الجسد العنصرى وبقيت فى الجسد الهور قليانى وجميع أجسام الجنة والنار من قبيل الصور النومية[٣] وقد أنكر معراج النبى بالبدن العنصرى البشرى المحسوس «مستدلا بأن الصعود بهذا البدن يلزم منه الخرق والالتئام تبعاً للفلاسفة»[٤] وفسر المعراج تفسيراً يختلف عن التفاسير المألوفة التى تحاول التوفيق بين العقل والنقل .

وينسب إليه الغلو فى الأئمة حتى إنه أشركهم مع الله فى الخلق وفى القدرة وفى مسائل أخرى هى من صفات الألوهية والربوبية ؛ لذلك حكمت عليه طبقة العلماء بالكفر والخروج عن الدين وكتبت بذلك وثيقة وضعتها فى كربلاء إحدى المدن المقدسة فى العراق[٥] .

ولم يكتب الرواج للمذهب « الشيخى » على عكس « البابية » التى نشأت فى أحضان « الشيخية » ونمت بتربتها . والظاهر أن للتنظيم وقدرة زعماء البابية على إحكام أساليب الدعاية وتوجيه أنظارهم نحو العالم الخارجى المتعطش لكل فكرة غريبة هى التى دعت إلى رواج هذا المذهب الغريب . أما المذهب « الشيخى » فلم يظهر فى وسطه زعيم قوى بعد وفاة خليفة « الإحسائى » السيد كاظم الرشتى يستطيع الاستمرار على دعاية ذلك المذهب على الرغم من الجهود التى بذلها بعض علمائهم من أمثال الحاج محمد كريم خان الكرمانى والملا محمد الماقانى (Mâmaqânî)[١] .

ومع ذلك فلا زالت هنالك جماعة صغيرة مشتتة بين العراق وإيران وسواحل الخليج تنتمى إلى مذهب الإحسائى ولكنها لا تتظاهر بذلك ولا تجهر به .

وأكثر الكتب المؤلفة فى عقائد «الشيخية» هى من تأليف الشيخ أحمد الإحسائى نفسه الذى كان مؤلفا وكاتباً نشطا فى التأليف ، ومن تآليف تلميذه وخليفته السيد كاظم الرشتى والكرمانى والمامقانى ومن ظهر من رجالهم . وقد طبع بعضها ولا سيما كتب الشيخ أحمد الإحسائى فى إيران والهند . ولدى الأستاذ المؤرخ المحامى عباس العزاوى وهو عالم ومن الهواة فى جمع الكتب مجموعة مهمة من كتب الشيخية منها ما هو بخط الإحسائى نفسه ، ومنها ما هو بخط السيد كاظم الرشتى أو بخط الزعماء الشيخيين[٢] .

حاول الملا صدرا كما حاول جماعة إخوان الصفاء وبقية الفلاسفة الإسلاميين وقبلهم الفلاسفة المسيحيون التوفيق بين الفلسفة والدين ، وبين العقل والنقل ، وبين فلسفة اليونان وبين دين الإسلام . والملا صدرا ميال إلى آراء اليونانيين بل هو مؤمن بها إيماناً كلياً ولكنه مسلم من جهة أخرى ، وفى محيط إسلامى كانت الصوفية فى ذلك الوقت تتحكم فيه . هو صوفى فى التفكير والحياة والميول . ويذهب مذهب محيى الدين بن العربى فى آرائه ولا سيما فى فكرة « وحدة الوجود »[٣] .

ولعل وحدة المزاجين مزاج ابن العربى ومزاج الملا صدرا هى التى جمعت بين الملا صدرا وبين المتصوف الشهير على تباعد الوقت واختلاف العقيدتين — وهى التى جمعت بين الملا صدرا وبين بقية المتصوفة عموماً . والظاهر أن الملا صدرا كان يؤمن بعقائد ابن

(١) نفس المصادر Huort, Shaikpis Ency of islam Vol 4 P, 279

(٢) راجع Donaldson The Shi'ite P, 363 Brown Vol 4. 421 Traveleir PP, 197. 310 — 312. راجع الكتب المؤلفة عن البابية .

(٣) راجع رسالة كشف خطأ الخونسارى فى معرفة الاحسائى ١٣٣٤ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ .

(١) Brown Vol. 4 P, 422 Traveller's narrative pp, 278 .

(٢) عن كتب الشيخ أحمد الاحسائى راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ ، أيضاً Brown Vol 4 p, 421 و Donaldson pp, 360 nicolas, Essai Sur le cheikhisme part 1. p, 60

(٣) روضات الجنات ص ٢٤٠ ، وكتبه المختلفة

العربى وبآرائه إيمان المقلد المعجب تراه يقتبس كلمات ابن العربى وأمثاله وأفكاره ويبثها فى كتبه كما لو كان يقتبس من كتاب من الكتب المقدسة السماوية . ويدل ذلك فى الوقت نفسه على اطلاعه الواسع على كتب ابن العربى ومؤلفاته على غموض العبارة وصعوبة الافكار والأسلوب[1] . وابن العربى من مبدعى مذهب « وحدة الوجود » فى الإسلام والملا صدرا ممن يعتنق هذا المذهب ويدين به . روى عن ابن العربى أنه كان يقول « كفر النصارى ليس بقولهم إن المسيح هو الله بل كفرهم لقولهم إنه ابن الله »[2] . وقال صدر الدين فى أول رسالته سريان الوجود « ثم اعلم أن ذلك الارتباط كما مر ليس بالحالية ولا بالمحلية بل هى نسبة خاصة وتعلق مخصوص يشبه نسبة المعروض إلى العارض بوجه من الوجوه وليس هى بعينه كما توهم . والحق أن حقيقة تلك النسبة والارتباط وكيفيتها مجهولة لا تعرف »[3] . وقال « الأقرب فى تقريب تلك النسبة أعنى إحاطته ومعيته بالموجودات ما قال بعضهم من أن من عرف معية الروح وإحاطتها بالبدن مع تجردها وتنزهها عن الدخول فيه والخروج عنه واتصالها به وانفصالها عنه عرف بوجه ما كيفية إحاطته تعالى ومعيته بالموجودات من غير حلول واتحاد ولا دخول واتصال ولا خروج وانفصال وإن كان التفاوت فى ذلك كثيراً بل لا يتناهى ولهذا قال من عرف نفسه فقد عرف ربه »[4] :

وما الناس فى التمثال إلا كثلجة ... وأنت لها الماء الذى هو فيه[5]

فالملا صدرا على جادة ابن عربى فى «وحدة الوجود» ويشاركه فى آرائه الصوفية الأخرى . ولكنه كان من جهة أخرى حذراً جداً فى كلامه لبقا فى أساليب التعبير . وكان إذا أراد البحث فى قضية من القضايا الحساسة تعمد التعقيد والأبهام والإجمال خوفاً من الاصطدام بطبقة « المجتهدين » الذين ناهضوا التصوف والفلسفة والمتفلسفين واستحوذوا على الشاه وعلى بطانة الشاه .

استحوذ رجال الدين و « أصحاب الاجتهاد » على الرأى العام وتدخلوا فى شؤون الحكومة حتى أصبحت الحكومة لهم والحكم فى القضايا المدنية إليهم . وتغلبوا شيئاً فشيئاً على أصحاب الذوق وعلى رجال التصوف الذين استأثروا بالحكم فى بادىء الأمر حين تشكلت الدولة الصفوية ، تلك الدولة التى نشأت على أسس صوفية وعلى دعوة منظمة سياسية تسترت باسم التصوف والدروشة وذكر الله العظيم . ولكنها كانت تبث الدعوة وتوجه الأنظار سراً إلى عمل سياسى منظم قام به أنجال صفى الدين الأردبيلى الصوفى والزاهد المشهور وجد السلاطين الصفويين[1] .

ومما ساعد تفوق رجال الدين على طبقات المتصوفة الفوضى الأخلاقية التى انتشرت فى نوادى المتصوفة وأوكارها من « تكايا » و « خانقاه » وفى صفوف « القلندرية » و « الدراويش » إذ تحول « الذكر » الدينى إلى رقص إيقاعى خليع ، وتحول « الغزل الإلهى » إلى غزل شهوانى مبتذل حتى اضطر المتصوفة أنفسهم إلى مكافحة هذه الطرق فيها كما فعل الملا صدرا نفسه وهو فى عداد المتصوفة فى رسالته « كسر أصنام الجاهلية »[2] .

وصبغ متصوفة إيران ممن سبقوا الملا صدرا أو ممن جاءوا من بعده ابن العربى وإخوانه المتصوفة بصبغة شيعية فجعلوه من كبار المجاهدين فى خدمة التشيع وآل البيت وأحاطوه مع أمثاله كما أحاطه متصوفة السنة بهالة من التبجيل والتقديس . وكان الأحرى بهؤلاء أن يعدوه مع إخوانه فى قائمة خاصة لا هى سنية ولا هى شيعية ؛ قائمة يسجل فيها مع أهل الباطن وأهل الآراء الخاصة

على أن أهل الفقه من رجال الدين ممن اشتركوا فى محاربة التصوف ورجاله لم يرضوا عن ابن العربى ولا عن زملاء ابن العربى ولم يخفوا حنقهم عليه . وقد حار المترجمون فيما بعد واضطروا إلى نقل الرأيين المدح والذم على الجمع بين الضدين فى مكان واحد[3] .

(يتبع) **جواد على**

(١) روضات الجنات صـ ٥٤٢ ، وما بعد . iqbal Development of metaphysics in persia London Luwoe 1908.

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق جـ ١٢ صـ ٧٢٩ بقلم الشيخ أبو عبد الله الزنجانى .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق جـ ١٢ صـ ٧٤٠ .

(٤) نفس المصدر جـ ١٢ صـ ٧٤١ .

(٥) نفس المصدر جـ ١ مجلد ١٠ صـ ٣٠ .

(١) توفى سنة (٧٣٥ هـ — ١٣٣٤ م) راجع Donaldson p, 262. Browne persian Literatwre in modern Tines p, 33 ff صفوة الصفا طبعة بومى سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م .

(٢) Brown Vol 4 p, 430 عن كتبه راجع أيضاً مجلة المجمع العلمي العربى بدمشق جـ ١١ — ١٢ . روضات الجنات صـ ٥٤٢ .

(٣) راجع كتب التراجم مثل روضات الجنات ، وقصص العلماء ؛ حيث تجد أسماء المتصوفة فى ضمن أسماء الشيعة . وفي المدح والذم .

القضاء في الإسلام

قطعة من محاضرة ألقيت في دمشق سنة ١٩٤٣ ولم تنشر

للأستاذ علي الطنطاوي

[مهداة إلى الرجل الذي أرانا في شخصه صفحة حية من أمجاد قضاتنا الأولين ، وفاخر به عصرنا العصور السالفات ... عارف النكدي]

يا سادتي ! أحب أن أكون هذه العشية مؤرخاً لا شاعراً ، وأن أعرض عليكم حقائق ثابتة بأسلوب هادئ ، فلا أفخر ولا أبالغ ، ولا أملأ الآذان إغراقاً وتهويلا ، فإذا سمعتم مبالغة فاعلموا أن الواقع هو الذي يبالغ ، وما هو ذنبي إذا كان قضاتنا الأولون قد نظموا بأعمالهم قصائد دونها في الفخر معلقة ابن كلثوم ، وجعلوا من مناقبهم مفخرة خالدة لكل من قال « أنا عربي » ، أو قال « أنا مسلم » ... وكانوا أعلام الهدى في طريق العدالة ، وكانوا الدراري في سماء القضاء ، قد بذوا كل سابق وفاتوا كل لاحق ، وما كان مثلهم ، ولا أحسبه يكون !

إني والله آخذ تاريخهم فأختصره وألخصه وأعرضه عليكم ، وربما أشرت إشارة عابرة إلى القصة لو سمعتموها على أصلها ما دريتم لفرط ما يخالطكم من السمو والزهو وهزة الطرب وأخذة العجب! أفي أرض أنتم أم في سماء ... لا تعجبوا ، ففي تاريخنا من الأمجاد ما لو أفيض على أفراد البشر لجعلهم كلهم عظماء !

وبعد ، يا سادتي ، فإن القضاء أعلى درجة استطاع البشر الارتقاء إليها . ارفعوا القضاء من تاريخ الإنسان يهبط إلى درك البهائم ، ويأكل القوي من بني آدم الضعيف ، وإن معنى الإنسانية وحقيقتها في الحياة المجتمعة الهادئة الآمنة ، التي لا يطغى فيها أحد على أحد ، والتي تصان فيها الحيوات والحريات ، وتحفظ الدماء والأعراض ، ويتحقق فيها التعاون على جلب المصالح ودرء المفاسد ، ولا يكون ذلك كله إلا بالقضاء .

والقضاء — عند المسلمين — أقوى الفرائض بعد الإيمان ، وهو عبادة من أشرف العبادات ، لأنه إظهار للعدل ، وبالعدل قامت السموات والأرض . وصف الله به نفسه إذ قال (فالله يحكم بينهم) و (إن ربك يقضي بينهم) ، وأمر به نبيه فقال (وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) ، وجعل أنبياءه قضاة بين خلقه (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون) ، وبه أثبت الله اسم الخلافة لداود حين قال له (يا داود ، إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى) .

والقضاء أول ما تعقد عليه أمة خناصرها ، إذا عددت أمجادها ومفاخرها . وإذا استدل بفرد على سلائق جيل ، كان القاضي العالم العادل أظهر دليل على مكارم شعبه ونبل أمته . وإذا كان بين الشعوب اليوم من يفخر باستقلال قضائه ، وعزته ومضائه ، ففاخروه يا شبابنا بقضائكم يكن لكم الفخار ، وتعقد على جباهكم تيجان (النار) ، ولكن لا تناموا على هذا المجد التليد ، بل انهضوا فصلوه بمجد لكم جديد !

* * *

يا أيها السامعون ! إني لا ألقي خطابيات ، ولكن أسرد حقائق: هذا قضاؤنا ، فمن عرف قضاء أشد منه استقلالا ؟ هل نال قاض في أمة من الحرية مثل ما كان لقضاتنا ؟ لم يكن القاضي مقيداً بمذهب بعينه لا يد له في مخالفته ، ولا مربوطاً بقانون بذاته لا يملك الخروج من ربقته ، وليس لخليفة عليه في حكمه سلطان ، ولا لأمير معه في قضائه كلام ، تبدلت على المسلمين دول ، واختلفت حكومات ، وقام قاسطون ومقسطون ، وخيّرون وشريرون ، والقضاء في حصن حصين ، لا تبلغه يد عادل ولا ظالم ، ولا يمسه خليفة حق ولا سلطان جائر ... القاضي واجتهاده ، مرجعه كتاب الله وسنة نبيه ، ورقيبه ضميره ودينه ، ووازعه إيمانه ويقينه . وسيأتي الكلام في صفات القاضي ، وأن الأصل فيه أن يكون من أهل الاجتهاد لا من المقلدين . ولقد رأيت في تراجم بعض القضاة أنهم كانوا يرجعون إلى الخلفاء يسألونهم ويستفتونهم ، وإن من الخلفاء من كان يذيع من (البلاغات) ما ظاهره إلزام القاضي بقول أو مذهب . وتحرير الكلام في هذه المسألة أن من أعمال الخلفاء الاجتهاد والفتوى والقضاء وقيادة الجيوش وسد الثغور ، ومن شرائطهم العلم ، فإذا رجع القضاة إلى الخلفاء ، فإنما يرجعون إليهم لعلمهم وفقههم لا لسلطانهم

ومنصبهم ، وأكثر ما رأيت من السؤال إنما هو لعمر بن عبد العزيز وأمثاله . ولقد كانوا يقولون : « العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة » ... ولم يكن القضاة ملزمين بالعمل بجواب الخليفة أو بلاغه . ولقد رد القاضي المصرى بكار بن قتيبة بلاغ الموفق العباسي ، لما ثبت عنده أنه مخالف للحكم ، مناهض للدليل وأسقط العمل به[1]

ولعمر الحق ما فرط قضاتنا بهذه الأمانة ولا أضاعوها ، بل كانوا أمناء عليها ، قائمين بحق الله فيها ، لا يعرفون في الحق كبيراً ولا صغيراً ، يقيمونه على الملوك قبل السوقة ، ويأخذون للضعيف الواني من القوى العاتي ، لم تكن تنال منهم رغبة ولو جئتهم بكنوز الأرض ، ولا تبلغ رهبة ولو لوحت لهم بالموت منشورا ، بل كانوا في الحق كالجبال هيبة وثباتاً ، وفي إنفاذه كالصواعق مضاء وانقضاضاً ، وسيأتيكم حديث محمد بن عمران قاضي مكة ، الذي ادعى لديه جمال على أمير المؤمنين ، العظيم المخيف ، أبى جعفر المنصور ، فبعث إليه (مذكرة جلب) ، فجاء به في خف وطيلسان ما عليه من شارات الإمارة شيء ، حتى وقفه بين يديه مع الجمال . وشريك قاضي الكوفة حين ادعت لديه امرأة مجهولة على الأمير الخطير ابن عم الخليفة وثانى رجل في الدولة بعده عيسى بن موسى ، فحكم عليه حكما غيابياً ، فامتنع الأمير من إنفاذه وتوسل إليه بكاتبه ، فحبس القاضي الكاتب لأنه مشى في حاجة لظالم ، فاستعان عليه بجماعة من وجوه المراقبين من إخوان القاضي ، فساقهم جميعاً إلى الحبس ، فغضب الأمير وبعث من أخرجهم . عند ذلك — أيها السادة — عصفت نخوة الشرع في رأس القاضي ، وأخذته عزة الإيمان فقال : « والله ما طلبنا هذا الأمر (يعني المنصب) ، ولكنهم أكرهونا عليه ، وضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم » . ثم ختم قمطره ، وجمع سجلاته ، واحتمل بأهله ، فتوجه نحو بغداد ، ووقعت الرجفة في الكوفة حين مشى فيها خبر خروج القاضي ، حتى خاف الأمير على سلطانه ، فلحق بالقاضي يناشده الله أن يرجع ، فقال القاضي : « لا والله حتى يرد أولئك إلى الحبس ، فما كنت لأحبس أنا وتطلق أنت » ؛ فبعث الأمير من يرجعهم إلى الحبس ، والقاضي واقف ينتظر حتى جاءه الخبر بأنهم قد أرجعوا ، فقال القاضي لغلامه : خذ بلجام دابة الأمير وسقه أمامي إلى مجلس الحكم ، إلى المسجد ، أيها السادة ، وهناك أجلسه بين يديه مع المرأة ، فلما انتهت المحاكمة وحكم لها عليه ، نهض إليه فسلم عليه بالإمارة وقال له : هل تأمر بشيء ؟ فضحك الأمير وقال : بماذا آمر؟ وأى شيء بقى؟ قال له شريك : أيها الأمير ، ذاك حق الشرع ، وهذا حق الأدب . فقام الأمير وهو يقول : من عظم أمر الله ، أذل الله له عظماء خلقه !

هذا قضاؤنا ، فهل ممتم عن قضاء أنه بلغ في التسوية بين الخصوم مبلغه ؟ لقد سووا بينهم في المجلس والخطاب والبشر ، واللفتة العارضة ، والبسمة البارقة ، بله الحكم . وقد بلغ التدقيق في تحقيق هذه التسوية مبلغاً لا غاية وراءه ، فاقترن في هذه المسألة العلم بالعمل ، وحقق القضاة ما دون الفقهاء ، فافتحوا أقرب كتاب فقه إليكم تروا ما ذا دونوا ...

وقف بين يدى المأمون وهو في مجلس المظالم رجل يتظلم منه نفسه ، فترادا الكلام ساعة فما اتفقا ، قال المأمون : فمن يحكم بيننا ؟ قال : الحاكم الذى أقمته لرعيتك يحيى بن أكثم ، فدعا به المأمون فقال له : اقض بيننا ؛ قال : في حكم وقضية (أى في دعوى) ؟ قال : نعم ؛ قال القاضي : لا أفعل . فعجب المأمون وقال : لما ذا ؟ قال يحيى : لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضاء ، فإن كانت له دعوى فليأت مجلس الحكم (أى المحكمة) ؛ قال المأمون : قد جعلت دارى مجلساً للقضاء . قال : إذن فإني أبدأ بالعامة ليصح مجلس القضاء (وتكون المحاكمة علنية) ؛ قال المأمون : افعل ؛ ففتح الباب ، وقعد في ناحية من الدار ، وأذن للعامة ، ونادى المحضر ، وأخذت الرقاع (أوراق الدعوة والإعلان) ، ودعى الخصوم على ترتيبهم حتى جاءت النوبة إلى المتظلم من المأمون ، فقال له القاضي : ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون . فنادى المحضر : « عبد الله المأمون » ! فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى ، ويحيى جالس ، فقال للمأمون : اجلس ! فطرح الغلام المصلى ليقعد عليه ، فمنعه القاضي حتى جاء بمصلى مثله ، فبسط للخصم وجلس عليه ، والقصة طويلة عجيبة ، تتمتها أعجب من فاتحتها ، فاقرءوها في (المحاسن والمساوئ)

(١) راجعوا الكندى وذيوله

للبيهقى ، الجزء الثانى الصفحة ١٥١ ، وإنكم لتحارون بعدُ ، م تعجبون : من جرأة الرجل ، أو من صلابة القاضى ، أو من أخلاق المأمون !

ومن قبله غضب علىّ — كما قيل — حين كانت له دعوى مع اليهودى ، لأن القاضى ناداه : يا أبا الحسن ، ودعا اليهودى باسمه ، فرأى فى ذلك تعظيما له وإخلالا بالمساواة بين الخصوم ، والله أعلم بصحة ما قيل . ونزل ضيف بخير بن نعيم قاضى مصر فأطعمه وأكرمه ، ثم علم أن له خصومة لديه ، فتركه فى الدار ، وذهب يفتش عن خصمه حتى جاء به فأجلسه معه على المائدة . وقد حدثنى عمى القاضى النزيه صلاح الدين الخطيب عن عمه قاضى يافا فى زمانه العالم الجرئ المشهور صاحب النوادر الشيخ أبى النصر الخطيب بمثل هذه القصة ... وما كان الخير لينقطع فى أمة محمد إلى يوم القيامة !

هذا قضاؤنا ، فهل سمعتم أن قضاء أسرع فى إحقاق الحق منه ، وأبعد عن التعقيد والالتواء والتسويف والتأجيل ؟ إن الحق اليوم لا يكاد يصل إليه صاحبه حتى تتقطع دونه الأعمار ، وما جدى حق يأتى من دونه المدى الأطول ؟ لقد كانت بيننا وبين آل الصلاحى فى دمشق دعوى على أرض لبثت فى المحاكم ثلاثاً وثمانين سنة وخمسة أشهر ... أقامها على جدهم جدى الذى قدم من (طنطا) ، وانقرض منا ومنهم بطنان والدعوى قائمة ، وقد خسرناها أخيراً . وصدقونى إذا قلت لكم إنى لم أدر إلى الآن مع من منا الحق ، ولم أفهمها . وكيف أدرس ملفاً فيه من الأوراق المكتوبة بالعربية والتركية والفرنسية أكثر مما فى تاريخ بن جرير الطبرى ؟ أما قضاؤنا ، فكان يبت فى القضيَّة مهما عظمت فى جلسة أو جلستين ، لا يعرف هذا التطويل وهذا التأجيل . ولقد حكم قاضى مصر محمد بن أبى الليث فى دعوى بنى عبد الحكم المشهورة بمبلغ مليون وأربعمائة وأربعة آلاف دينار ذهبى فى جلسة واحدة يوم السبت ٨ جمادى الأولى سنة ٢٣٧ هـ ، ورضى بحكمه الفريقان . روى ذلك الكندى

وهل مثل قضاتنا فى التنزه عن كل ما يقدح بحشمة القاضى ووقاره ، وفى التحرز من أدنى التهم ، وأضعف الميل ؟ هل للقضاة فى أمة اليوم مثل ما كان لقضاتنا من رفيع الشأن وعظيم القدر ؟

يا أيها السادة ! اذهبوا إلى سوق الكتب فاطلبوا كتاب « الخراج » الذى ألفه القاضى الإمام أبو يوسف للرشيد واقرؤوا مقدمته ، واذكروا عظمة الرشيد وكبر نفسه وجلال ملكه ، ثم انبشوا تواريخ الأمم الماضية وأخبار الأمم الحاضرة ، وانظروا .. هل تجدون قاضياً ، أو عالماً ، يقول لملك دون الرشيد بمائة مرة مثل هذا الكلام أو قريباً منه : « الله الله ، إن البقاء قليل ، والخطب خطير ، والدنيا هالكة وهالك من فيها ، والآخرة هى دار القرار ، فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين ، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم ، وقد حذرك الله فاحذر ، فإنك لم تخلق عبثاً ، ولن تترك سدى ، وإن الله سائلك عما أنت فيه ، وعما عملت به ، فأعد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها ، فإن ما عملت قد أثبت فهو عليك غداً يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله فى مجمع الأشهاد »

أيها السادة ، هذا بعض ما خاطب به أبو يوسف القاضى هارون الرشيد أمير المؤمنين والحاكم المطلق فى ست عشرة حكومة من حكومات هذه الأيام !

على الطنطاوى

العلوم الاجتماعية

التاريخ... ما هو؟

« إذا أراد العالم أن يكون مؤرخاً،
فعليه أن يكون رجل اجتماع ... »

للأستاذ فؤاد عوض واصف

التاريخ ... ما هو ؟ عنوان سبقنا إليه العلامة الألمانى لامبرشت ؛ فلعله كان من بين الذين أثارهم ذلك التضارب المثير والاختلاف الكبير بين اتجاهات التاريخ المختلفة ، حتى لقد احتار طلاب العلم ولم يدروا ، أهو أنف كليوباترا الدقيق الذى غير مجرى التاريخ المصرى القديم ، أم هى عوامل طبيعية وجغرافية لم يكن لسحر كليوباترا وجمالها دخل فيه ، أم هو الشعب أقام التاريخ المصرى القديم كما أقام كليوباترا وأقعده كما أقعدها ؟

التاريخ ... ما هو ؟ هل هو الإنسان بما ركب فيه من ميول ونزعات تنمو تارة فيزدهر التاريخ ، وتضمحل أخرى فتضيع أصداؤه ؟ أم هى الطبيعة بجبالها وأنهارها بغاباتها وأشجارها ، ينمو التاريخ فى أحضانها مزوداً بأعاصيرها ورياحها بثورتها وهدوئها ، أم هو المجتمع يتمخض عنه التاريخ « كما يتمخض الناتج الكيميائى عن مزيج من العناصر » ، دون أن يكون للفرد فية أو للعوامل الطبيعية غير دور ثانوى ؟ ...

التاريخ ... ما هو ؟

***

كان التاريخ فى عهوده الأولى عبارة عن مقطوعات نثرية لا تقرر الواقع ، وكانت أغلب القصص التى تروى فى ذلك الحين مختلفة ، وكانت المعابد مكاناً تسجل فيه بعض الأحداث ومعجزات الآلهة . أما فى روما ، فكان أكثر ما يشغل الشعب الأخبار السياسية ، ولذلك كانت تدون على جدران المعابد

وجاء المؤرخون الأول من بلاد أيونا ، واشتهروا بأسفارهم ورحلاتهم العديدة التى كانت عمادهم فى جمع الأخبار وتسجيلها . ومن هؤلاء هيرودوت أبو التاريخ الذى طاف بعدة بلاد ، وزار مصر حيث تعرف إلى كهنتها ، فكانوا له أكبر العون ، وأمدوه بالقصص المختلفة وأخبار الآلهة ووقائع الحروب . وجاء بعد هيرودوت توكيديدس واكزنوفان وغيرهما ، ومجموع ما خلفه لنا هؤلاء وإن يكن يحوى الكثير من الحقائق ، فإن الطابع الأدبى والشعرى غالب عليه(١)

وفى القرون المسيحية الأولى كان التاريخ مقصوراً على مجرد ذكر الوقائع والأخبار المسيحية المختلفة ، وحتى القرن الثالث عشر الميلادى كان التاريخ فى معظمه وقائع وأخباراً دينية ، وكان غرض المدرسين أن يبينوا كيف أن الأحداث التاريخية تتابع فى نظام إلهى ؛ فالحياة الإنسانية سلسلة عجائب ومعجزات إلهية ، هى تجليات لله فى خيرها ، وتجليات للشيطان فى شرها (٢)

والنهضة الأدبية التى ظهرت فى القرن الثالث عشر قادت إلى الكشف عن كثير من النصوص المفقودة ، وأمدت التاريخ بعناصر جديدة ، فظهرت لأول مرة مؤلفات تاريخية منظمة مثل مؤلفات مكيافيلى

وفى القرن السادس عشر أصبح المؤرخ بعد حركة الاكتشافات الكبيرة ، على علم ببلاد جديدة وشعوب جديدة ؛ فاتسعت بذلك معلوماته واتجه إلى البحث فى فروع جديدة من أفرع التاريخ كاللغة والديانات وغيرها ...

وبعد الثورة الفرنسية ظهرت القوميات فكانت دافعاً كبيراً للبحث عن منابع التاريخ القومى لرغبة الناس فى التغنى بماضى أوطانهم وتفوق عناصرهم ، فظهرت الكتب التاريخية حافلة بالوقائع الحربية وتراجم مشاهير الرجال . ولا يزال التاريخ يتقدم حتى بلغ المرحلة التجريبية ؛ وظهرت الخطوط الأولى لهذا التقدم الهائل فى مؤلفات بارتسولدنيبورر الذى يعد واضع منهج التأريخ العلمى ، ومن عهده أصبح التأريخ يستند إلى مناهج شبيهة بمناهج العلوم الطبيعية ، وأصبح المؤرخ يتخذ من نفسه موقف الباحث العلمى الذى يبحث عن الوقائع مجرداً عن كل غاية ، وانحصر عمل المؤرخين فى هذا الدور على جمع الوقائع والأخبار وتحديدها تحديداً

---

(١) Encyclopoedia Britannica : History .

(٢) The Spisituel interpretation of History : mathews p. 11

علمياً وتنسيقها في مجموعات منظمة ؛ ولم يكن المؤرخ يرمي إلى تفسير الوقائع أو بيان الرابطة العلية التي ترتبط بها الأحداث التاريخية لرغبته في الابتعاد كل البعد عن النزعة الذاتية

ولكن هل من الممكن أن تكون هذه المجموعة الكبيرة من الوقائع المحددة تحديداً علمياً دقيقاً ، هي كل عمل المؤرخ ينتهي عندها نشاطه ؟ لا بد للمؤرخ من أن يخطو خطوة أخرى حتى يجعل من الوقائع حقائق يقبلها العقل ، ذلك لأن الواقعة التي تريد أن تؤكد نفسها من غير تفسير أو علة ، لا يمكن أن تكون حقيقة مقبولة ، لأنها وهي تقرر وجودها تنكر شرطاً أساسياً للوجود الحقيقي [1]. إن الوقائع المنفصلة — كما يقول كروتشه — جافة وثقيلة ، ولا بد للفكر من أن يغمرها بقبسه حتى تكتسب الصفة العقلية : « إن الوثائق والآثار تعود إلينا برجالها ، فنتمثلهم أحياء عاملين منفعلين ، نتمثلهم بأصواتهم وهيئاتهم وعاداتهم ، وكأنهم عابرو سبيل التقينا بهم منذ فترة قصيرة ... ولكن تبقى خطوة ثانية ، هي البحث عن الرجل الخفي وراء الرجل الظاهر ، البحث عن المركز ومجموعة الأعضاء والعوامل الداخلية التي كانت علة حدوث الوقائع ... تلك هي الدراما الداخلية ، شيء يختلف عن جمع الأخبار » [2] . والقاعدة الأساسية التي يعرفها المؤرخ الآن « اجمع الأخبار ثم اربطها علمياً وفسرها » [3]

الخطوة الأولى إذاً في العمل التاريخي هي جمع الأخبار وتحديدها تحديداً علمياً دقيقاً . والخطوة الثانية ، وهي التأريخ بمعناه الحقيقي تتجه إلى تفسير الوقائع والكشف عن الروابط العلية التي ترتبط بها الأحداث التاريخية

ولما كانت عملية التفسير التاريخي عملية ذاتية Subjective تعددت النظريات واختلفت الاتجاهات ، ومن هنا جاءت كتب التاريخ مصبوبة في قوالب مختلفة وفي كثير من الأحيان متناقضة

والذي نبغيه من هذا البحث العلمي هو تحديد هذه الاتجاهات المختلفة ، وبيان أوجه النقد فيها ، ثم نحاول أن نكشف عن هذا الاتجاه الجديد الذي يمكن رد الأبحاث التاريخية فتسلم من وجوه النقد . وسنرى أن هذا الاتجاه هو علم الاجتماع الحديث ، فموضوع التاريخ وعلم الاجتماع واحد ، وهو الإنسان في نشاطه الاجتماعي .

***

والاتجاهات المختلفة في التفسير التاريخي يمكن أن تنقسم إلى قسمين :

١ — نظريات متيافيزيقية أو ميتافيزيقية مقنعة بحجاب علمي

٢ — نظريات علمية

أولا : النظريات الميتافيزيقية

١ — النظرية الدينية : تتلخص في القول بوجود علة متعالية هي رائدة الأحداث التاريخية تحددها وتقودها نحو غاية يعلمها الله . وهذا التفسير لا يزال له أنصار معاصرون مثل لورنت البلجيكي وروخول الألماني وفلنت الإنجليزي ؛ فعند هؤلاء علة الوقائع التاريخية هي إرادة الله ، والتاريخ سلسلة من معجزات الله

٢ — النظرية العقلية : تتجه هذه النظرية في تفسيرها لعلل الوقائع التاريخية اتجاهاً يرمي إلى القول بأن هذه الوقائع تتم تبعاً لنظام عقلي مرسوم ، وكل واقعة تاريخية لها غرض وجودي ، ومن شأنها أن تحدث تقدماً في المجتمع

ولإثبات خطأ هذه النظرية يكفي أن نقول إن الأبحاث التاريخية العديدة تثبت لنا أن الوقائع التاريخية تتم في أغلب الأحايين إن لم يكن في كلها بعكس ما تزعمه هذه النظرية . فليست الصفة العقلية بملازمة للوقائع التاريخية ، فالمؤسسات وغيرها لا تقوم في الغالب إلا لإشباع رغبة منشئيها وأصحابها ، وإن الحصر ليقصر عن تعداد الأحداث التاريخية التي كانت سبباً في تأخر المجتمع لا في تقدمه تبعاً للصفة العقلية التي تزعمها هذه النظرية

٣ — النظرية الهيجلية : وهي نظرية الأفكار التي تلاحظ من خلال [1] الشعوب كرائدة وقائدة لها . وقد ظهرت هذه النظرية في ألمانيا بشكل « الرسالة » Beruf التي توكل إلى الشعوب والأفراد فيكون الزمام بأيديهم فتحقق الأحداث التاريخية تبعاً لمشيئتهم وتوجيههم

(١) Reasorn in politics : K. B. smellie p. 175

(٢) History and Historiography : B. Croce p. 66

(٣) Ibid p. 72

(١) Intraduction ts the Study of hiotory : Langlois Seignodos p. 286.

وهذه النظرية شبيهة بالنظرية السابقة ، لأنها تفترض أن الأحداث التاريخية تتحقق بطريقة عقلية ومن شأنها تقدم المجتمع، فما قيل في نقد النظرية السابقة يمكن أن يقال في نقد هذه النظرية

٤ — نظرية التقدم المستمر والضروري للانسانية ، وقد اعتنقت هذه النظرية من بعض الوضعيين وترد إلى العلامة سبنسر . فسبنسر في كتابه « مبادئ علم الاجتماع » يزعم أنه بدراسته للأحداث التاريخية قد استنبط قوانين عامة تتحكم فيها وتعمل باستمرار على تقدم الإنسانية ورقيها . وفي نظره أن الإنسانية تتقدم من البسيط إلى المركب ، ومن المتجانس إلى اللامتجانس ، وإنها تتطور أيضاً من الحالة الأنانية إلى الحالة الغيرية

ولكن البحوث الحديثة قد أثبتت خطأ نظريات اسبنسر كلها ، فالأنانية موجودة في عصرنا الحالي ، وفي كثير من الأحايين لا تختلف عن أحط أنواع الأنانية الموجودة في الشعوب البدائية ؛ وحسبنا ما هومشاهد في استراليا من قيام بعض الجماعات الأوربية بصيد الزنوج في عطلة الآحاد كأنهم يتصيدون حيوانات لا حق لهم في الحياة . فالأنانية والغيرية موجودة في الشعوب البدائية والحديثة بدرجة تكاد تتشابه في كثير من المواطن(١)

٥ — النظرية الحيوية : هذه النظرية استعارت تفسيرها من عالم الكائنات الحية ، فقد أراد أصحابها أن يدرسوا فروع التاريخ المختلفة من لغة وقوانين وعادات ... إلخ . كما لو كانت كائنات عضوية حية تملك قوة وراثية كامنة فيها هي علة النشوء والتطور فيها . ونضرب مثلاً لنظرية التطور الحيوي Entuickelung بأبحاث برونتيير في تاريخ الأدب ، وهي أبحاث شهيرة استعارت تفسيراتها من عالم الكائنات الحية

وسينوموس يرد على هذه النظرية بالقاعدة الآتية : « إذا أردت أن تبحث عن علل حادث تاريخي فابدأ بتفسيرها تجريبياً ، وإذا أردت أن تستعمل تجريدات بعد ذلك فابتعد عن كل مجاز يظهر هذه العلل في صورة موجودات حية ... »

هذه هي أهم النظريات الميتافيزيقية والشبه ميتافيزيقية التي تناولت تفسير الأحداث التاريخية والكشف عن عللها بوجهات نظرها المختلفة . وقد بينا وجوه النقص في هذه النظريات المختلفة وقصورها الواضح في بيان التفسيرات الصحيحة للأحداث التاريخية ...

ثانياً : النظريات العلمية

١ — النظرية الجغرافية والظروف الطبيعية المحيطة بالإنسان : ترتبط الوقائع التاريخية تبعاً لهذه النظرية ارتباطاً علمياً يقوم على الظروف الإقليمية والاختلافات الجغرافية والطبيعية . فعند راتزل ، الجبال والأنهار والبحار وغيرها من العوامل الجغرافية هي العلة المباشرة للوقائع التاريخية . فمثلا متشنيكوف يقول : « إذا تساءلنا عن العامل الذي كان سبباً لأن تصل المدنية إلى درجة النضوج فسيكون الجواب : إنه المكان الذي هيأ أكثر من غيره مجالا لتكاثف الناس »(١)

والآنسة سمبل تقول : « إن انتقال المخترعين الأول من الشرق إلى الغرب إنما كان للتخلص من كلاب جيرانهم ونباحهم المزعج »(٢)

وهذه النظرية شائعة في الكتب التاريخية إلى حد كبير ، وتحمس لها الكثيرون من أئمة التاريخ كمونتسكيو(٣) وابن خلدون(٤) . والواقع أنه إذا كان للظروف الجغرافية والطبيعية الأثر الذي لا ينكر ، فإن الإنسان بما امتاز به من قوة فكرية يخضع في الطبيعة في أغلب الأحايين ويسيطر عليها ، وهذا ما جعل كلودبرنارد يقول عن الإنسان : « إنه السيد الآخر للطبيعة » le contremaitre de la nature (٥)

٢ — النظرية المادية التاريخية : هذه النظرية تنظر إلى الحياة الاقتصادية كعلة للوقائع التاريخية . فالطاحونة التي كانت تدار بالهواء

(١) L' Origine et le deueloppemenl desidées morales : E. Weslermarcq Tome I (hommicide) .

(١) The new History and Sociol Studies : H. E. Barnes p. 48

(٢) The Spiriluel interpretation of history : Mathews p. 18

(٣) راجع كتابه « روح القوانين » : Lésprit des Lois .

(٤) راجع محاضرات الأستاذ علي عبد الواحد وافي للسنة الثالثة فلسفة بجامعة فؤاد الأول .

(٥) Intrsduction à l'étude experimentale de la medccine : C. Bernard p. 25.

قد أوجدت مجتمعاً « يتحكم فيه أمراء الأقطاع » ، وأما الطاحونة التى تدار بالبخار فقد أوجدت مجتمعاً رأسمالياً » ؛ فالتحول الاجتماعى من النظام الأقطاعى إلى النظام الرأسمالى يرجع إلى تحول الطاحونة التى تدار بالهواء إلى طاحونة تدار بالبخار[١] ...

وأهم من قال بهذه النظرية هو كارل ماكس . فكارل ماركس جعل الحياة الاقتصادية هى العامل المحرك للحياة الاجتماعية والأحداث التاريخية وموقف الإنسان ما زاد الحياة الاقتصادية موقفاً « سلبياً Passif » .

وهذه النظرية رغم شهرتها حافلة بالأخطاء النظرية والعملية . فأتباع كارل ماركس أنفسهم فى عصرنا الحالى فى روسيا وإن اتفقوا مع أستاذهم فى كون العامل الاقتصادى هو أهم العوامل الاجتماعية ، فهم يخالفونه فى نظرته إلى الإنسان باعتبار موقفه من الحياة الاقتصادية موقفاً سلبياً ؛ فالاشتراكية الحديثة تقرر أن الإنسان عامل إيجابى actif وأن الحياة الاقتصادية ترتد إليه ، فهو الذى ينميها ويوجهها سواء السبيل[٢] .

وإن المقام ليضيق بنا إذا أردنا تعداد الأخطاء النظرية والعملية من النظرية المادية التاريخية التى سلبت الحياة والفكر من الإنسان الناطق وأعطته للمادة الصماء ...

٣ — النظريات النفسية : أهم هذه النظريات بالنظريات بالنسبة للتاريخ نظريتان :

(ا) نظرية التقليد . (ب) نظرية الدوافع .

(ا) نظرية التقليد : أول من قال بهذه النظرية جبرائيل تارد وتتلخص فى أن ظهور فرد قوى أو قائد شجاع يكون عاملا على انبثاق حضارة جديدة . فنظرية تارد تنسب كل الأحداث التاريخية إلى أفراد وهم الرجال العظماء « The great men » ، فتراهم يقولون « نابليون فعل كذا وكذا ... » . والعلة التى جعلت انجلترا فى عهد الملكة (أنا) تختلف عن انجلترا فى عهد الملكة اليزابيث ، والتى جعلت جامعة هارفرد اليوم تختلف عنها منذ عشرات السنين إنما ترجع إلى أفراد « إنه الفرد منبع الأفكار الجديدة ، والاختراعات والقواعد القضائية وغيرها من عوامل الإصلاح ... »[٣]

(١) The Spirituel interpretation of history: mathews p. 33.

(٢) political Theories ; Barnes Bolhhevism.

(٣) The new Histoly and Sscial Saenees ; Barnes p. 104

وظاهرة التقليد عند تارد تقوم على ثلاثة عناصر :

١ — التكرار .

٢ — المعارضة .

٣ — القبول .

وتكون هذه العناصر الثلاثة حلقة دائرية ، تبدأ محدودة ثم تأخذ فى الاتساع بسرعة وبدون توقف . وعنصرا التكرار والقبول هما العنصران البارزان فى هذه العملية ، وعنصر المعارضة يهيأ ، فى هذه الحركة الدائرية لظهور عباقرة مخترعين . ويمكن أن تفهم العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة عندما تعتبر أن عنصر التكرار المستمر يعمل بنفسه على مضاعفة القبول وازدياده ، وفى حالة المعارضة يعمل على ظهور وسائط أخرى من شأنها أن تحدث اتجاهات جديدة وتضاعفها بدورها ...[١]

ولعل نظرية التقليد هى أكثر النظريات العلمية شيوعاً فى مناهج البحث التاريخى ، مع أن التقليد كما يقول العلامة دركيم « هو توليد أوماتيكى ناتج عن فعل بدون أن يتدخل فى هذا الفعل أية عملية عقلية واضحة أو غير واضحة »[٢] فانتشار عادة من العادات فى مجتمع ما لا ترد إلى تقليد الأفراد الذين بدأوا بممارسة هذه العادة تقليداً إرادياً كما يزعم تارد ، وإنما يرجع انتشار العادة إلى الشعور الجمعى المتولد والذى كان هؤلاء الأفراد أول من استجاب له » فالتقليد هنا بمعنى آخر تماماً غير هذا الذى يعنيه تارد .

(ب) نظرية الدوافع : يقول ميرفى ونيوكمب فى كتابهما « علم النفس الاجتماعى التجريبى » ، إنه إذا كانت ظاهرة التقليد قد حظيت بالأنصار العديدين فى أواخر القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين ، فإنه لم يعرف حتى الآن انتصار لنظرية كذلك الذى حظت به نظرية الدوافع التى كان أول من قال بها ماكدوجل الأمريكى . فماكدوجل يقول « إن مظاهر الأفراد بعضهم مع بعض فى المجتمعات ، ترجع بعد تحليلها إلى الدوافع الفطرية » ، وهذه الدوافع عند ماكدوجل أربعة عشر أهمها الجوع والعطش والغريزة الجنسية وغريزة الأمومة[٣] .

(البقية فى العدد القادم) **فؤاد عوض واصف**

(١) Ibie p. 174.

(٢) L' annèe Sociologique I p. Durkheïn.

(٣) Ekperimental Social psychology : murphy and neuwmb p. 9

الحديث المحمدى

لمعة من تاريخه

للأستاذ محمود أبو رية

[عن لنا أن نبحث عن تاريخ الحديث ، وبعد درس طويل تهيأ لنا من هذا التاريخ كتاب سنقدمه للطبع وهذه كلمة صغيرة عنه]
« أبو ريه »

لما أنشأت أدرس دينى درس العقل والفكر بعد أن آخذته تلقيناً من نواحى العاطفة والتقليد رأيت أن أرجع إلى مصادره الأصلية ومراجعه الأولى ، ولما وصلت من دراستى إلى كتب الحديث كنت أجد فيها بعض أحاديث لا تسكن نفسى إليها ولا يطمئن قلبى لصحتها ، ذلك بأنها تحمل من المعانى ما لا يقبله عقل سليم أو يقربه علم ثابت أو يؤيده حس ظاهر أو كتاب متواتر[1] ، وكنت أجد مثل ذلك فى كثير من الأحاديث التى شحنت بها كتب التفسير والتاريخ وغيرها .

وكان أكثر ما يثير عجبى أنى إذا قرأت كلمة لأحد أجلاف العرب أهتز لبلاغتها وتعترينى أريحية من جزالتها ، وإذا قرأت بعض ما ينسب إلى النبى من قول لا أجد له هذه الأريحية ولا ذلك الاهتزاز . وكنت أستبعد أن يصدر مثل هذا الكلام المفسول من البلاغة عن النبى الذى كان أفصح مَنْ نطق بالضاد . وما كان عجبى هذا إلا لأنى كنت أسمع من شيوخ الدين عفا الله عنهم : أن كل الأحاديث التى وردت فى كتب السنة قد جاءت بألفاظها ومعانيها ، وإن على المسلمين أن يسلموا بكل ما حملت ولو كان فيها ما فيها .

ولما قرأت حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » غمرنى الدهش لهذا القيد الذى يبعد أن يأتى من رسول جاء بالصدق وأمر به ، على أن الكذب كما قال الحافظ بن حجر[2] : « هو الأخبار بالشىء على خلاف ما هو عليه سواء أكان عمداً أم خطأ » .

ظللت على ذلك زمناً طويلا إلى أن حفزنى حب عرفان الحق إلى أن أنقب عن تاريخ الحديث من مصادر الدين الصحيحة ، والأسانيد التاريخية الوثيقة لعلى أقف على شىء يذهب بما فى صدرى من حرج ويصرف ما بنفسى من ضيق ، وذلك لأن هذا الأمر الجليل لم يفرد من قبل بالتأليف المستقصى أو التدوين المستفيض .

ولبثت فى البحث والتنقيب زمناً طويلا إلى أن انتهيت من أمر (الحديث المحمدى) إلى حقائق غريبة ونتائج خطيرة ، ذلك أنى وجدت أنه لا يكاد يوجد فى كتب الحديث كلها ما سموه صحاحاً وما سموه سنناً حديث قد جاء على حقيقة لفظه ومحكم تركيبه ، حتى لقد قال الإمام الشاطبى فى الاعتصام[1] : « أعوز أن يوجد حديث عن رسول الله متواتر » ووجدت أن الصحيح منه على اصطلاحهم إن هو إلا معان مما فهمه الرواة من أقواله صلى الله عليه وسلم . وقد يوجد بعض ألفاظ مفردة قد بقيت على حقيقتها فى بعض الأحاديث ولكنك لا تجد ذلك إلا فى الفلتة والندرة ؛ ومن أجل ذلك جاءت أحاديث الرسول وليس فيها من نور منطقه أو ضياء بلاغته إلا شعاع ضئيل .

كان أول ما انكشف لى من هذه الحقائق أن النبى (ص) لم يجعل لحديثه كتاباً يكتبونه عند ما كان ينطق به كما فعل ذلك بالقرآن ، وبذلك تفكك نظم ألفاظه وتمزق سياق معانيه من أذهان السامعين . ولم يدع الأمر على ذلك فحسب بل نهى عن كتابة غير القرآن أو تدوينه فقال : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ؛ فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه » رواه مسلم وغيره ، ثم اتبع أصحابه طريقه وأطاعوا أمره فلم يكتبوا أقواله كما كتبوا القرآن . ولم يقف أمرهم عند ذلك بل ثبت عنهم أنهم كانوا يرغبون عن رواية الحديث وينهون الناس عنها ، وينتقد بعضهم بعضاً فيما يأتى منها ويتشددون فى قبول أخبارها حتى لقد كان عمر رضى الله عنه لا يقبل الخبر من أى صحابى إلا إذا جاء بشاهد يشهد أن النبى قاله .

(1) الكتاب المتواتر هو القرآن .

(2) قصدنا أن نأتى بتعريف الكذب الذى وصفه ابن حجر لأنه شيخ رجال الحديث وإذا ذكرت لفظة الحافظ فلا تنصرف إلا إليه .

(1) ص ٣٥ ج ١

رواية الحديث بالمعنى

ولما رأى بعض الصحابة أن يرووا من أحاديث نبيهم ووجدوا أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بأصل الحديث كما سمعوه على لفظه، كما نطق النبي الكريم به، وإن الذاكرة لها حكم يجب الأذعان له والنزول عليه أباحوا لأنفسهم أن يرووا على المعنى. ثم سار على سبيلهم كل من جاء من الرواة بعدهم فيأخذ المتأخر عن المتقدم ما يرويه عن الرسول بالمعنى ثم ينقله إلى غيره بما بقى فى ذهنه من هذا المعنى. وهذا أمر معلوم بينهم حتى لقد قال وكيع كلمته المشهورة: (إذا لم يكن المعنى واسعاً فقد هلك الناس) وهكذا ظلت المعانى تتوالد والألفاظ تختلف باختلاف الرواة، وفيهم الأعاجم وغير الأعاجم ممن ليسوا بعرب، ولا يخفى ما فى ذلك من ضياع معالم المعنى الأصلى وزوال شىء كثير منه. ومن العجيب أن رواية الحديث بالمعنى قد سارت على هذا النهج قروناً إلى أن خرج الحديث فى صورته الأخيرة التى حملتها كتب السنة وخرجت بها فى القرن الثالث وما بعده. وقد قال البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ وكتابه كما يقولون أصح كتاب بعد كتاب الله: «رب حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر، فقيل له بكماله؟ فسكت»[1].

ولقد كان لرواية الحديث بالمعنى ولا جرم ضرر كبير سواء أكان من الناحية الدينية أم من الناحية اللغوية والبلاغية، وبعد أن أباحوا الرواية بالمعنى استجازوا لأنفسهم أن يأخذوا بالحديث إذا أصابه اللحن أو اعتراه الخطأ أو اختلف نظم عقده بالتقديم أو التأخير؛ وكذلك قبلوا أن يأخذوا ببعض الحديث ويتركوا بعضاً.

الموضوعات

وإن أشد ما منى به الحديث ولا جرم إنما كان منها (الموضوعات) التى اختلطت به وتدسست إليه فكانت مصدر بلاء كبير للمسلمين فى كل العصور، وقد تولى كبر هذه الموضوعات فريقان:

أحدهما: أحياء الإسلام من مختلف الفرق والمذاهب وأصحاب الأهواء حتى الصالحين وأهل العبادة، أولئك الذين قال فيهم يحيى بن سعيد القطان: «ما رأيت الصالحين فى شىء أكذب منهم فى الحديث» ولقد كانوا يسوغون افتراءهم بقولهم: (إنا نكذب له لا عليه) ولكى يشدوا عملهم هذا بما يؤيده وضعوا أحاديث على النبي تجيز لهم هذا (الوضع) مثل ما رووا «إذا لم تحلوا حراماً ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس».

ثانيهما: أعداء الإسلام من الزنادقة وغيرهم من دهاة اليهود والنصارى الذين أظهروا الإسلام وأضمروا دينهم، فاغتر الصحابة وتابعوهم بإسلامهم، وأخذوا من غير بحث عنهم. ولقد كان مما وضعوه، تلك الأحاديث التى جاءت فى فضل الشام الذى كان فى عهد بنى أمية قاعدة الحكم ومصدر السلطان، وكذلك وضعوا أحاديث فى أن (الأبدال) المعروفين عند الصوفية سيظهرون فى الشام!

ولئن كان قد كذب على النبي بعد وفاته فقد كذب عليه وهو حى، ولا غرو فإن الكذب عريق فى الإنسانية لا يخلو منه زمان ولا مكان.

الإسرائيليات والمسيحيات

وقد عقدنا فصلا للاسرائيليات تحدثنا فيه عما صنعه كهان اليهود فى حديث رسول الله وأثبتت فى كتب السنة وفى التفاسير ومصادر التاريخ وغيرها أمثال: كعب الأحبار، ووهب ابن منبه وغيرهما. وبينا كيف استحوذ هؤلاء الكهان على عقول المسلمين حتى وثقوا بهم ورووا عنهم، وعرضنا لأمر مؤامرة قتل عمر التى اشترك فيها كعب الأحبار، وقصة الصخرة، وبينا كيدهم السياسى الذى قام به عبد الله بن سبأ وأردفنا هذا الفصل بفصل آخر عن المسيحيات وما صنعه مثل تميم الدارى الذى كان مسيحياً وأسلم.

كثرة الأحاديث المروية

ولما كان التدوين قد تأخر وما جاء عن الرسول من قول غير القرآن قد فاته الإحصاء والتقييد ولم يرتبط فى زمن النبي وصحابته بالتدوين، فإن الرواية قد اتسعت واستفاضت، وكلما امتد الزمن زادت الرواية حتى صارت الأحاديث المنسوبة إلى النبي تعد بمئات الألوف. وقد نقلوا عن احمد بن حنبل أنه قال: صح من الحديث

(1) ص ١١ ج ٢ من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى.

٧٠٠ ألف حديث وأكثر ، وأن أبا ذُرعة قد حفظ ٧٠٠ ألف حديث .

ولما طلب إسحاق بن راهويه من تلاميذه وفيهم ــ البخاري ــ أن يجمعوا مختصراً لصحيح سنة رسول الله . ونهض البخاري لتحقيق رغبة أستاذه قال :

« إني أخرجت كتابي من زهاء ستمئة ألف حديث » ونقل عنه أنه قال : احفظ مئة ألف حديث صحيح ومئتي ألف حديث غير صحيح ! على أنك لو نظرت إلى عدد ما اختاره في كتابه لوجدت أنه لا يزيد عن ٢٥١٣ كما حرر ذلك الحافظ ابن حجر فأين ترى قد ذهبت هذه الثروة الهائلة من الأحاديث !

أبو هريرة

ولما كان أبو هريرة أكثر الصحابة رواية عن رسول الله في حين أنه لم يصاحب النبي إلا ثلاث سنين فحسب ، وكذلك كان أكثر من نقل عن هؤلاء اليهود فقد أفردنا له ترجمة خاصة تحرينا فيها وجه الحق ، وحق العلم ، وأوردنا فيها ماله وما عليه بغير أن نخشى أحداً في إظهار الحق أو نتحرج من شيء في بيان العلم ، وكيف يصدنا تحرج أو يمنعنا خوف وقد انتقده الصحابة أنفسهم وردوا كثيراً من رواياته ، وكذبه عمر وعثمان وعلى وعائشة وغيرهم ، بل قد ضربه عمر بالدِّرة وحذره الرواية عن النبي أو ينفيه إلى بلاده حتى لقد كان بذلك أول راوية اتهم في الإسلام .

حديث من كذب علي

أما حديث من كذب عليّ (متعمِّداً) فقد عُنيت بالبحث عن حقيقته عناية كبيرة حتى وصلت من بحثي إلى أن كلمة (متعمداً) هذه لم تأت في روايات كبار الصحابة ومنهم ثلاثة من الخلفاء الراشدين : عمر وعلي وعثمان ، وأن الزبير بن العوام ــ وهو حواري رسول الله وابن عمته ــ قد قال عنها : « والله ما قال متعمداً » ولعلها قد تسللت إلى الحديث من سبيل الأدراج المعروف عند رجال الحديث ليتكئ عليها الرواة فيما يروونه عن غيرهم على سبيل الخطأ أو الوهم ، أو الغلط أو سوء الفهم حتى يدرأوا عن أنفسهم إثم الكذب ولا يكون عليهم حرج في الرواية لأن المخطئ غير مأثوم ومن أجل ذلك وضع الرواة قاعدتهم المشهورة : إنما الكذب على من تعمده ؛ أو أن هذه الكلمة قد وضعت ليسوغ بها الذين يضعون الحديث حسبة عن غير عمد عملهم كما كان يفعل الصالحون من المؤمنين ، ويقولون : نحن نكذب له لا عليه . ومن العجيب أنهم قد جعلوا هذا الحديث من المتواتر بلفظه ومعناه في حين أنه قد ورد بصيغ كثيرة كل صيغة منها تخالف الأخرى .

تدوين الحديث

ومما كشف عنه البحث أن تدوين الحديث لم يقع إلا في القرن الثاني أي بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى بأكثر من مئة سنة . ولم يكن ذلك بدافع من الرواة ، وإنما كان بوازع من الولاة ! وبدا أول ما بدا غير كامل ، ثم تقلب في أدوار أربعة ، فكان في أول أمره مشوباً بأقوال فقهاء الصحابة في التفسير وغيرها من مسائل دينية أو طرف أدبية أو أبيات شعرية أو ما إلى ذلك مما كانوا يعنون بجمعه وتدوينه من غير ترتيب ولا نظام إلى أن جاءت طبقة[1] ابن جريج والربيع بن صبيح وحماد بن سلمة وغيرهم في منتصف القرن الثامن وما بعده ، فوضعوا كتباً في الحديث ولكنهم مزجوا أقوال الرسول بفتاوى الصحابة والتابعين كما تجد ذلك في موطأ مالك[2] .

وبعد انقضاء مئتي سنة من الهجرة جرد العلماء ما كان ينسب في هذا العهد إلى النبي من أحاديث ودونوه في مسانيد بغير أن يخلطوا به شيئاً من فتاوى الصحابة والتابعين مثل مسند الإمام أحمد[3] وغيره .

وفي منتصف القرن الثالث وأول القرن الرابع وما بعد ذلك ظهر التدوين في صورته الأخيرة ، فاختار البخاري وغيره من الأحاديث التي كانت منتشرة في زمنهم وخرجوا منها كتبهم .

علماء الأمة من أزياء الحديث

ولأن الحديث لم يبدأ تدوينه إلا في القرن الثاني وكتبه المعتمدة بلا خلاف بين المسلمين وهي : البخاري ومسلم وأبو داود

(١) الطبقة في اصطلاح المحدثين عبارة عن جماعة اشتركوا في السن ولقاء الشايخ توفي ابن جريج سنة ١٥٠هـ والربيع سنة ١٥٠هـ وحماد بن سلمة سنة ١٧٦هـ .

(٢) توفي مالك سنة ١٧٩هـ

(٣) توفي أحمد بن حنبل سنة ٢٤١هـ

والترمذي والنسائى[1] لم تظهر إلا فى القرنين الثالث والرابع ، وكانت روايته قد جاءت بالمعنى من طريق الآحاد التى لا تعطى إلا الظن – والظن لا يغنى من الحق شيئاً ، فإن علماء الأمة لم يتلقوه بمحض التسليم والإذعان كما تلقوا ما جاءهم من محكم القرآن ولا اعتبره من الأخبار المتواترة التى يجب الأخذ بها ولا يجوز لأحد أن يختلف فى اتباعها وإنما اختلفوا طرائق قدداً فيه اختلافاً بيناً لم يستطع أحد إلى اليوم تلافيه

المتكلمون وعلماء الأصول

أما المتكلمون وعلماء الأصول فإنه لما كان (الخبر) عندهم ينقسم إلى – متواتر وآحاد ؛ والمتواتر إنما يعطى العلم اليقينى ، والآحاد لا يعطى إلا الظن ، ولم يجدوا فى كتب الحديث خبراً متواتراً تكون دلالته يقينية بل إنه قد جاء من طريق الآحاد التى دلالته ظنية – والظن لا يغنى من الحق شيئاً – فقد ردوا كل حديث لا يتفق مع ما يذهبون إليه من الأصول التى اتخذوها لهم. ومن القواعد التى اتفق عليها جميع النظار أن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها فى العقائد .

الفقهاء

وأما الفقهاء فقد كبلهم التقليد فلم يعنوا بكتب الحديث ولم يعطوها حقها من البحث والدرس كما أعطوا كتب شيوخهم ، ولم يجعلوها بعد كتاب الله من مصادرهم التى يأخذون منها أحكام دينهم ، – وإنهم عفا الله عنهم لم يتفقوا على الأخذ بالراجح من الأدلة فترى كل فريق قد ذهب فى طريق يغاير الآخر – وإذا وجد من الأحاديث حتى الواهية ما يتفق ومذهبه أخذ به – وقد يأخذ ببعض الحديث ويدع بعضه ، أما ما يخالف مذهبه ولو كان مما رواه الجماعة[2] فإنه يرفضه ولا يرتضيه وبهذا الصنيع كثر اختلافهم وتعددت مذاهبهم ، ومن أجل ذلك وقف سير الفقه وسكنت حركته ، ولقد أعانهم على عملهم هذا أن أحكامهم مبنية على ما غلب على الظن صدقه ولكل أحد أن يأخذ من الأدلة بما يطمئن به قلبه ، وأن أئمتهم قد ماتوا قبل ظهور كتب الحديث

(١) توفى البخارى سنة ٢٥٦هـ ومسلم سنة ٢٦١هـ وأبو داود سنة ٢٧٥هـ والترمذى سنة ٢٧٩هـ والنسائى سنة ٣٠٣ .

(٢) الجماعة هم أحمد والشيخان (البخارى ومسلم) وأبو داود والنسائى والترمذى

المشهورة[1] وأن هؤلاء الأئمة أنفسهم قد كانوا مختلفين فى الأخذ بما جاء عن الرسول من أحاديث فما يأخذ به هذا يدعه ذاك وهلم جرا .

ولو أنت رجعت إلى كتب العلماء المحققين وبخاصة كتاب أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية لوجدت فيها أحاديث كثيرة جداً لم يأخذ علماء الفقه بها ولم يخالفوا مذاهبهم من أجلها ، وبذلك أصبحت كتب الحديث فى ناحية الإهمال منهم ، وإذا ما رجعوا إليها فإنما يكون ذلك للتبرك بها أو لدفع النوازل بأسرارها[2] ، ومن عجيب أمرهم أنهم وقد جعلوا حديث الرسول وراء ظهورهم لا يزالون يقولون بأنه الأصل الثانى من أصول دينهم .

علماء النحو

وأما أئمة النحو فلم يجعلوا الحديث من النصوص التى يستشهدون على قواعدهم بها لأنهم قد استيقنوا أن رواية نصوص الحديث الصحيحة قد انتثر عقد تركيبها ولم تأت عن النبى بحقيقة لفظها ولا يعلم أحد على التحقيق ما هى الصورة الصحيحة التى نطق بها وقاعدتهم التى اتفقوا عليها أنهم لا يستشهدون إلا باللفظ المتواتر والنص الصحيح ، وعلى أنهم قد تركوا الاستشهاد بالحديث الذى جاءهم عن نبيهم فإنهم يأخذون بكلام الأعراب الذين يبولون على أعقابهم .

ولما انكشف لى ذلك وغيره مما لم أذكره هنا وبدت لى حياة (الحديث المحمدى) واضحة جلية أصبحت على بينة من أمر ما جاء عن الرسول من أحاديث فآخذ منها ما آخذ وقلبى مطمئن وأدع ما أدع ونفسى راضية . ولا على مما أدع شىء ؛ وصرت متابعاً للأستاذ الإمام محمد عبده فيما يقول : « لا أومن بحديث تعرض لى شبهة فى صحته » وللسيد رشيد رضا فى قوله : لا أعتقد سند حديث ولا قول عالم صحابى يخالف ظاهر القرآن وإن وثقوا رجاله ؛ فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيئ الباطن » . ولا يتوهمن أحد أن هذا بدع فى الدين فإنهم قد جعلوا من قواعدهم

(١) مات أبو حنيفة سنة ١٥٠هـ ومالك سنة ١٧٩هـ والشافعى سنة ٢٠٤ وأحمد سنة ٢٤١هـ .

(٢) من معتقداتهم أن وجود نسخة من البخارى فى البيت تمنع عنه الحريق وغيره ، وكان شيوخ الأزهر عند ما ينزل بالبلاد نازلة يجتمعون لقراءة البخارى لكى يدفع الله عن البلاد ببركته ما نزل بها وكذلك يقرأون البخارى فى الأماكن المعروفة (بالمقارى) ليستنزلوا به الرحمة على الأموات وينالوا به عند الله أرفع الدرجات .

المشهورة : إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة فى الشريعة أو للبرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينيات .

ومن قواعدهم كذلك[1] :

« ليس كل ما صح سنده يكون متنه صحيحاً ولا كل ما لم يصح سنده يكون متنه غير صحيح » .

« من بلغه حديث وثبت عنده وجب عليه العمل به ومن خالف بعض الأحاديث لعدم ثبوتها عنده أو لعدم العلم بها فهو معذور .

« وقال حجة الإسلام الغزالى : إن من يعمل بالمتفق عليه كان مسلماً ناجياً » .

(المنصورة) **محمود أبو رية**

(١) الك قواعد كثيرة غير هذه القواعد أوردناها فى كتابنا . (أبو رية)

معاهدة عربية سودانية

بين والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح وقلدرود ملك السودان فى سنة ٣١ هجرية — ٦٥٢ ميلادية

للأستاذ المبــارك إبراهيم

ما كاد العرب يدخلون أرض مصر فاتحين بقيادة السياسى العربى الداهية عمرو بن العاص ، وما كاد يستتب لهم الأمر فيها ويبسطون سلطانهم الدينى عليها ، وما كاد يدين لهم المصريون بالطاعة عام ٢٠ للهجرة[1] على أكثر الروايات شيوعاً[2] ... ما كاد يتم كل هــذا حتى اتجه نظر ابن العاص رئيس الحكومة العربية المصرية الجديدة فى فسطاط مصر صوب القطر السودانى ابتغاء فتحه وضمه إلى خريطة الامبراطورية العربية الناشئة . وكان ذلك فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

(١) يوافق عام ٦٤٢ للميلاد .

(٢) فى رواية أن الفتح العربى لمصر تم فى ١٨ هجرية

ففى عام ٢١ للهجرة أعد والى مصر عمرو بن العاص جيشاً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل ، وسيره لفتح السودان تحت إمرة القائد العربى المشهور عبد الله بن سعد بن أبى سرح

على أن هــذا الجيش الغازى لم يستطع التوغل فى الأراضى السودانية ، وذلك لوعورة المسالك ، وللمقاومة الشــديدة التى صادفها من جيش حكومة السودان التى كان مقرها يومئذ « دنقلة العجوز » أى القديمة

ويؤخذ من رواية ابن الأثير أن هــذه الغزوة العربية الأولى للقطر السودانى لم تكن موفقة كل التوفيق ، إذ لم يتعد الفتح العربى فيها بلاد الشلال التى تقع على التخوم . ثم إن عبد الله بن أبى سرح ، ما لبث أن انسحب بجيشه عائداً أدراجه إلى مصر بناء على أمر تلقاه من ابن العاص ، وكان ابن أبى سرح قد هادن أهل البلاد المفتوحة على دفع الجزية فكانوا يدفعونها

وقد روى ابن الأثير أن عدداً لا يستهان به من المحاربين العرب قد عادوا إلى مصر وهم مثخنون بالجراح فاقدو الأحداق لكثرة ما نالهم فى أبصارهم من نبال الجيش السودانى . ولذلك كان المحاربون العرب يسمون المحاربين السودانيين برماة الحدق

***

ثم دارت عجلة التأريخ دورتها ، فعزل ابن العاص عن ولاية مصر فى عهد خلافة عثمان رضى الله عنه ، فآلت ولاية مصر إلى قائدنا عبد الله بن أبى سرح ، وعبد الله هو من ذوى قرابة ابن عفان ، بل ويعد أخاً له فى الرضاعة

وفى عام ٣١ الهجرى الموافق ٦٥٢ للميلاد أعاد ابن أبى سرح الكرة وهو والى مصر ، فسار فى طليعة جيشه معتزماً فتح السودان مهما كلفه الأمر . وكان السودانيون حينذاك قد نقضوا عهد الهدنة ، ورفضوا دفع الجزية وصاروا يشنون الغارة على سكان الحدود المصرية من العرب وأبناء الصعيد ، ويوسعونهم نهباً وتقتيلا منتهزين فرصة انشغال رجال الحكومة العربية فى المسائل الداخلية التى تلت مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأقصت ابن العاص عن مصر ، وغير ذلك من المشاكل العربية الخامنة

***

هذا ، وبعد حروب طاحنة[١] بين جنود ابن أبي سرح وجنود قلدرون ملك دنقلة ، تمكن الفاتح العربي من احتلال دنقلة — وكانت عاصمة السودان يومذاك — بعد أن حاصرها ورماها بالمنجنيق ، ولم يكن استعماله معروفاً عند الجيش السوداني

وقد قال أحد الشعراء العرب الذين اشتركوا في معركة دنقلة الفاصلة راجزاً :

لم تر عيني مثـــل يوم دنقله   والخيل تعدو بالدروع مثقله !

* * *

أما المعاهدة العربية السودانية التي حررت دليلا على المهادنة والصلح بين الفريقين فإليك نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة « السودان » ولجميع أهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض « علوة » : وهي على بعد ١٥ ميلا من الخرطوم

إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من أهل الذمة

إنكم معاشر النوبة « السودان » آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم

على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم ، وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه

وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم « دنقلة » ، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه

وعليكم في كل سنة ثلثمائة رأس وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وأناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والي أسوان

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان

فإن أنتم أويتم عبداً لمسلم ، أو قتلتم مسلماً ، أو معاهداً ، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً ، فقد « برئت » منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به ، والله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك[١]

* * *

هذا ، وتحفظ لنا كتب التأريخ الشيء الكثير من الحوادث والأخبار عن العهد الذي عقب توقيع هذه المعاهدة العربية السودانية

(أم درمان — سودان)   **المبارك إبراهيم**

(١) ممن أصيبوا في عيونهم من رجالات العرب الشاهير يوم دنقلة معاوية بن خديج . وأبرهة ابن الصباح

(١) كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة ٣١ هجرية

ذرة لا تميزهـــا العين

[كادت تجارب الذرة أن تجعل الأرض كرة ملتهبة من الغازات]

للأستاذ فوزي الشتوي

لدمار العالم أم لعمرانه ؟

قبل أن تنشب الحرب بفترة وجيزة وقف لفيف من العلماء أمام مدفع تحطيم الذرة في جامعة كولومبيا يستعدون لأخطر تجربة. ومن يدري بما سيحدث لو انطلقت آلاته ؟

استولى الرعب على كثير من العلماء فقالوا : إنه دمار العالم . فلن تمضى دقائق أو ثوان حتى تكون الأرض كلها كرة غازية ملتهبة لا أثر فيها الإنسان ولا الحيوان ولا نبات ولا جماد . ولكن العلماء لا يريدن إلا تحطيم ذرة واحدة من معدن الأورانيوم . ولكنهم يخشون القوة المنطلقة من هذه الذرة فتفجر ما حولها من ذرات وهذه تفجر ما يليها من أجسام وهكذا دواليك في سلسلة تكتنف الكرة الأرضية كلها وتبيد كونها .

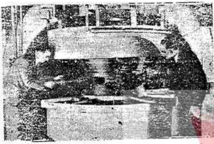
وتمت التجربة وسلمت الأرض ؛ فإن سلسلة الانفجارات الذرية لم تحدث . وربما تكون قد حدثت ولكنها لم تستمر أكثر من واحد على مليون من الثانية . أما السبب فكان عدم الدقة في إجراء التجربة . ولو كانت دقيقة لأبيد العالم كله ولتفجرت كل ذرات قطعة الاورانيوم فانسابت قوتها تفتك بالعالم .

الذرة

فما هي الذرة وعلى أية قوة تسيطر ؟

فأما الذرة فهي وحدة الجزىء . وهو بدوره أصغر وحدة في المادة ، وهي شيء نظري لا وجود له في الواقع الملموس وأصغر مادة تراها بعينك تتألف من ملايين الذرات . وهي في جميع المواد التي تلمسها مجموعة من الكهارب بعضها موجب وبعضها سالب . ويسمى الكهرب الموجب بروتون ومنه تتألف نواة الذرة . وحول هذه النواة كهارب سالبة تسمى ألكترون .

ويترتب على عدد هذه الكهارب خواص المعدن إن كان حديداً أم نحاساً أم ذهباً . فالكهارب واحدة ولكن اختلاف عددها هو الذي يحدد نوع المعدن . ومن ثم نشأ الاعتقاد العلمي بإمكان تحويل الحديد أو القصدير إلى ذهب . وقد فشلت جميع التجارب في هذا السبيل لأن العلماء فشلوا حتى الآن في التغلغل في الذرة وزيادة كهاربها أو تقليلها .



(شكل ١) مدفع تحطيم الذرة في جامعة كولومبيا بأمريكا وفي فراغها الداخلي أجريت تجارب تحطيم الذرة

والبروتونات أو الكهارب الموجبة التي تؤلف نواة الذرة أثقل من كهاربها السالبة وإن كانت أصغر منها في الحجم . ويساوي وزن بروتون واحد وزن ١٨٤٥ الكترون ، وفي المنطقة الخارجية مجموعة من الكهارب السالبة الدائمة الحركة حول النواة . وإذا زاد عدد الكهارب السالبة أو الموجبة في الذرة فإنه يسمى أيونا .

مائتا مليون فولت

وقدرت جامعة كولومبيا في أمريكا ، وهي المعهد الذي تولى القيام بهذه التجربة ، مقدار الطاقة الذرية التي نتجت عن تجربتها بمائتي مليون فولت أو ما يكفي لإضاءة مدينة كاملة جزء من الثانية ، كما أن قطعة الأورانيوم وهو من أصلب المعادن المعروفة تفتتت إلى ثماني عشرة قطعة صغيرة .

والطريقة التي اتبعتها جامعة كولومبيا في تجربتها هي استخدام كهارب خاصة اسمها (النيوترون) تنطلق من مصادرها على مراكز الذر فتخترق تحصيناتها وتستقر في نواتها (الكهارب

الموجبة) وعندئذ يبدأ الاضطرب فى الذرة وتصبح مثل أنبوب من المطاط والينا ملئه بالهواء، فوق طاقته فيجب أن يتخلص من بعض محتوياته أو ينفجر وهو ما يحدث فى الذرة التى ترسل طاقتها .

وربما كانت سرعة الطاقة المنطلقة هى السبب الذى أنقذ الأرض من الدمار فى هذه التجربة ؛ فإن النيوترون الأصلى الذى يحطم الذرة يسير بسرعة أقل من السرعة التى ينطلق بها نيوترون الذرة المحطمة ، ولهذا فإن الأخير يمر على الذرات الأخرى ولا يفجرها وهو فى ذلك مثل حبة الحصى التى يريد طفل أن يدخلها فى حفرة على الأرض . فإن قذفها بقوة مرت من فوق الحفرة حتى لو أجاد التصويب . ولـكنه لو دحرجها بلطف فإنها تستقر فيها .

معادن جديدة ؟

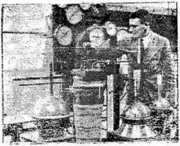
وأثبتت التجارب أن النترونات مهما كانت ضعيفة فإنها تستطيع تفجر أقوى الذرات وأثقلها لأن كهاربها الموجبة والسالبة متعادلة .

وفحص العلماء بقايا قطعة الأورانيوم التى تفجرت فى كل اتجاه فوجدوا أن وزنها الذرى تغير مما يدل على أن عنصراً جديداً طرأ على ذراتها وأنها أصبحت معادن أخرى؛ فبعد أن كان وزنها الذرى ٢٣٨ (وزن الأورانيوم) أصبح وزن بعضها الذرى ١٣٧ و ٢٢٠

ولسنا نستطيع التكهن بما اكتشفه العلماء بعد ذلك من خطوات حتى توصلوا إلى القنبلة الذرية ؛ ولـكن الثابت أن تجربة جامعة كولومبيا وما وليها فتحت آفاقاً واسعة أمام العلم ومهدت لاكتشاف القنبلة الذرية التى نرى من المعقول جداً ألا يتجاوز حجمها حجم البيضة لتدمر بضعة أميال من سطح الأرض .

وإن كبرت القنبلة عن ذلك فى مظهرها الخارجى فإنه فى الغالب حجم الغلاف الذى يجب أن تتوفر فيه أدوات خاصة لإجادة التصويب ولمقاومة طبقات الهواء وتياراته وأداة تفجر القنبلة نفسها . ومجرد تفجر مجموعة من الذرت يحدث درجة حرارة بالغة الارتفاع تحدث ضغطاً جوياً عظيما يدمر كل ما حوله ، فضلا عن إشعاله للنيران فى المواد القابلة الالتهاب ولو كانت خشباً .

وربما كان اكتشاف القوة التدميرية للذرة هو أبسط أسرارها . والمهم أن يعرف العلماء كيف يسيطرون على هذه الطاقة ويستخدمونها فى أعمال منتجة . وقد قال أحد العلماء : إن مصنعاً واحداً لإنتاج الطاقة الذرية يكفى لتغذية بريطانيا بكل ما تحتاج إليه من وقود وقوى محركة .



(شكل ٢) جزء من أجهزة تحطيم الذرة فى جامعة كامبردج وتقدر القوة التى تتولد فى الجهاز الصغير بما يكفى لاضاءة مدينة واحد إلى مائة من الثانية

ولقد فتح هذا الـكشف آفاقاً بالغة السعة أمام العلم . وسنسمع فى كل سنة اكتشافات متعددة تؤسس كلها على الذرة وأسرارها ؛ فأمام العلماء شعب لا حد لها وأولاها السيطرة على الطاقة الذرية وتوجيهها ، وثانياً خواص الذرة نفسها مما سيؤدى إلى تحويل معدن إلى معدن آخر . ومن يدرى ، فقد تستغل الـكهارب الجوية فى صنع المادة ؛ فالعالم كله مجموعة من الذرات .

فوزى الشتوى

في ليلة من ليالي الربيع

للأستاذ سيد قطب

فى الجو رائحةٌ توسوس فى الحنايا والصدور
نشــوانة خَـدِرَتْ، يعاودها التوثب والفتور
فتهيم كالشـــوق المجنَّح فى متاهات الضمير
وكأن رائحة الحياة تدب فى عبق مثير

* * *

وأحس بالنغمات ســـارية ترَقرقُ فى الدماء
كهتاف مشتاق تولَّـه لا يكف عن الدعاء
الأرض تفتنه ويرنو فى ابتهـــال للسماء !
والصمت يغمره وفى الأحناء وسوســة الغناء !

* * *

والحب والأشـــواق والظمأ المُلمّل للحياه
وهواتف الدنيا إلى القبل المُـليحة فى الشفاه
وترقرقُ الحرقات فى شـــغف يهيم إلى مداه
وتطلُّع الصوفىّ فى شـوقٍ إلى ذات الإله !

* * *

هو ذا الربيع وإنه لهو الهـــواتف والحنين
أبداً يهيج إلى عوالم تائهـــات لا تبين
ويهدهد الأحلام والذكرات شتى والفتون
فإذا الحياة هوًى يرف وفتنة وشجًى دفين

عزلة . . .

للشاعر الإنجليزي بوب

سعيد من تكون أمنيته وحرصه
قليلا من الأفدنة الموروثة عن الآباء ، قانعاً بأن يستنشق هواء بلده على أرضه ؛
يمده قطيعه باللبن ومزرعته بالخبز ،
ويغزل من وبر أنعامه فيكتسى .
يتفيأ ظلال أشجاره فى الصيف ويوقد منها مدفأته فى الشتاء

* * *

ما أسعده ... إنه يجد من غير عناء
ان الساعات والأيام والسنين تمر هادئة
وهو صحيح الجسم سليم العقل ؛ يجد الهدوء بالنهار وينام ملء جفنيه بالليل ... والتأمل والهدوء
إذا ما اجتمعا ينتجان انتعاشاً حلواً وبراءة ... يسعدان دائماً بالتفكير العميق
لذلك ... دعنى أعش غير مرئى وغير معروف
ولأمت غير مأسوف على . اختلس فرص الحياة وليس من حجر يحدث أين أرقد ؟ !

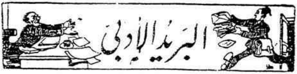
سليمان بخيت

فى المصيف

للأديب محمد طاهر الجبلاوى

أنا هُنا فى جوار البحر ظمآن   لا أرتوى ونسيم البحر ريان
أزاهرٌ من رياض الصيف ناعمة   تهفو فيهفو لها قلب ووجدان
من كل مفتونة بالبحرّ فاتنة   لها من الموج أكناف وأحضان
يضمها منه صدر جائش أبدا   كأنه مغرم بالحسن ولهان
تخفى وتظهر فوج الموج لاعبة   الموج يحبو إليها وهو جذلان
أعارها البحر من أخلاقه سمة   فلا يزال بها لين وطغيان
وهز عطفاً روياً من محاسنه   كأنه بنسيم البحر نشوان
يا فتنة فى حمى نبتون[1] أيقظها   موكل بقلوب الخلق يقظان
أوفى على عرشه العاتى فصيره   ملاعباً بفنون الحب تزدان
والبحر خلق عظيم فى تصوره   فكيف يركبه باللهو غزلان ؟
سجا وأسلس فى رفق وفى دعة   فليس يحفزه للشر عدوان
وافتر تحت جناح الشمس ناجذه   كأنه والد لاقاه ولدان
يا رفقة الصيف عيشوا فى مراتعه   فإنكم لكريم البحر ضيفان
أبو كم البحر لا يألوكم مرحاً   وروضه بفنون اللهو فينان
نعم البديل إذا عهد الربيع مضى   عهد المصيف ودنيا الحسن ألوان

(١) نبتون: إله البحر



ملاحظة وتصحيح :

جاء في (العدد ٦٣٢) من «الرسالة» بالصفحة ٨٥٨ ، ضمن مقالة «روسيا والشرق» كلمتا مندشوريا ومندشوكو . والملاحظ أنهما اسمان لمسمى واحد يسميه الروس بالأول واليابانيون بالثاني .

وورد في هامش (الصفحة ٨٥٦) إسم اسكندر الثاني ، عن سهو ، بدلا من إسم نقولا الأول قيصر روسيا .

ولا بأس في هذه النهزة بزيادة بيان . ذلك أن نقولا الأول احتج بالنزاع الطويل بين اللاتينيين الكاثوليك واليونانيين الأرثوذكس في شأن الأماكن المقدسة وهو يحاول تحقيق طمعه ببلاد الدولة العثمانية ؛ ولكن السلطان عبدالمجيد أحيا في عام ١٨٥٢ امتيازات فرنسا الخاصة بحماية الكاثوليك وبكنيسة قبر المسيح وغيرها ؛ فعرض نقولا الأول على انجلترا ، بعد ذلك بعام ، أن يقتسما الأمبراطورية العثمانية من غير إشراك فرنسا في الغنيمة ؛ وقال يومئذ كلمته المشهورة : «على سواعدنا رجل مريض ، مريض في خطر ، وإذا لم يكن بد من أن يُفلت منا قبل أن تؤخذ العدة الضرورية كان ذلك بؤساً عظيما» . ورفضت إنجلترا فزحف جيش نقولا إلى الأراضي العثمانية في مايو عام ١٨٥٣ ، ونشبت حرب القرم في العالم التالي . ثم مات القيصر عام ١٨٥٥ ، فخلفه اسكندر الثاني وعقد الصلح عام ١٨٥٦ .

محمد توحيد السلحدار

إلى الأستاذ العقاد :

قرأت «في بيتي» لأستاذنا الكبير فرأيت هذه الأبيات في الصحيفة الثانية :

النور سر الحياة   النور سر النجاة
المحه بالروح لا   لمح العيون الحواة
ما تبصر العين من   معناه إلا أداة

وهذه الأبيات من البحر المجتث وقد أدركت بداهة أن صدري البيتين الثاني والثالث خارجان من البحر وأنهما لا يصحان على وجه من الوجوه ثم بحثت الأمر لأتأكده فظهر لي ما أدركته أولا .

ولما كان الروي هو التاء المكسورة وكان الوقف لا يصح عليها لأن «القصر» لا يدخل البحر المجتث ظهر لي أن في البيت الثالث إقواء فكلمة أداة في البيت لا يصح جرها بحال .

(والعيون الحواه) في البيت الثاني الرأي فيها أنها الحاوية أو الحاويات ..

محمد العزازي
مدرس بمعهد قنا

حول ترجمة كتاب

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ نجيب محفوظ في العدد ٦٣١ من مجلة الرسالة نقداً لترجمة كتاب «الوسائل والغايات» لمؤلفه أولدس هكسلي . وهو ليس نقداً لترجمة هذا الكتاب وحده ، بل لكل الكتب التي تترجم على غراره ، وعلى المبدأ الذي توخيناه ولم يرض عنه

يرى الناقد أن الترجمة إما أن تكون حرفية ينقل فيها المترجم الأصل عبارة عبارة وإلا باتت عديمة الفائدة ؛ ولست أوافقه على هذا الرأي ، فمن الكتب ما ينبغي أن تنقل حرفاً حرفاً ، ومنها ما يُغني تلخيصها عن ترجمتها ، وللناقل عند التلخيص حق التصرف في الإيجاز والإسهاب حسبما يرى ، وليس بمخطئ في هذا ما دام لا يحيد عن أصل الفكرة وروحها ولا يزعم أنه ينقل الكتاب كلمة كلمة ، والمفروض أن الناقد مشبع بروح الكتاب عالم بالمواطن المهلهلة التي يمكن اختصارها ، وهو ناقل أمين ما دام يشير إلى خطته في الترجمة ولا يخفيها ، وبخاصة إذا كان الاختصار مما تقتضيه الضرورة كتحديد الحيز الذي يصدر فيه الكتاب المترجم ، أو عرض الفكرة على طائفة خاصة من القراء . وهذا ما فعلت عند ترجمة كتاب «الوسائل والغايات» ، فقد كنت مضطراً لإخراجه فيما لا يزيد عن مائتي صفحة ، فعرضت بعض فصول الكتاب عرضاً مسهباً ، وأوجزت في بعضها الآخر ، وأشرت إلى ذلك في مقدمة الكتاب

إننا إذا أخذنا برأى الأستاذ نجيب محفوظ ما أبحنا لأنفسنا أن نترجم فصلا من كتاب ، أو جزءاً من مقال ، فأما فصول الكتاب كلها والمقال بأسره أولا ترجمه على الإطلاق ، ولست أحسب أنه هو نفسه يوافق على ذلك . والمترجمون الإنجليز كثيراً مايتبعون طرقاً مختلفة في النقل ، فقد قرأت عيون الأدب اليونانى كلها ملخصة فى مجلد واحد وأفدت منها الكثير ، وقرأت كتباً أخرى اجتزئ فى ترجمتها ببعض فصول الكتاب دون البعض الآخر ، ووجدت فيها متعة وفائدة ، فالتلخيص جائز فى الترجمة معروف فى اللغات الأخرى ، ومن حقنا أن نستعمله فى العربية إذا اقتضتنا الضرورة ذلك

محمود محمود

بين القصة والشعر

قرأت كتاب (فى بيتى) للكاتب الكبير الأستاذ « العقاد » ولعله من أعمق ما كتب ، غير أنه لفت نظرى فيه الموازنة بين القصة والشعر . فالقصة عنده دون الشعر فى المرتبة ، وهى أهون عليه من أن يضيع فيها وقتاً يمكن أن يقرأ فيه ديواناً من الشعر ، وله فى هذه المفاضلة مقياسان يحدثنا عنهما فى كتابه فيقول : « غير أنى أعتمد فى ترتيب الآداب على مقياسين يغنيانى عن مقاييس أخرى ، وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التى يشيع بينها كل فن من الفنون .

فكلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والأسفاف . وما أكثر الأداة وأقل المحصول فى القصص والروايات ؟ إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذى يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتلفتت عينى فمذ خفيت ... عنى الطلول تلفت القلب

أو هذا البيت :

كأن فؤادى فى مخالب طائر ... إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

أو هذا البيت :

ليس يدرى أصنع إنس لجن ... سكنوه أم صنع جن لإنس

أو هذا البيت :

أعينا الهوى كل ذى عقل فلست ترى ... ألا صحيحاً له حالات مجنون

أو هذا البيت :

وقد تعوضت عن كل بمشبهه ... فما وجدت لأيام الصبا عوضا

لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل فى القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة فى التمهيد والتشعيب ، وكأنها الخرنوب الذى قال عنه التركى — فيما زعم الرواة — إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة !

أما مقياس الطبقة التى يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقياس إلى أحكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف فى منزلة الطبقة التى تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن أو منزلة الأخلاق . فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة الشعرى الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين » وهذان القياسان — كما يبدو — ليسا بالحكم الفصل فى موضوع خطير كهذا .

فالقياس الأول تحدث عنه علماء البلاغة والنقد ، فكانوا يرون أن خير الكلام وأبلغه ، ما جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، وهذا القياس ، وإن صلح للمفاضلة بين عبارة وعبارة أو بين بيتين من الشعر ، أو قطعتين من النثر ، فى موضوع واحد ، فإنه لا يصلح للمفاضلة بين القصة والشعر ، وذلك أن فائدة القصة ليست مقصورة على الغرض الأساسى الذى وضعت من أجله ، ولم تكن خمسون صفحة فى قصة ما ولو بلغت الطبقة الدنيا فى القصص تمهيداً لفائدة تقال فى سطر أو سطر ، ولكن هناك التصوير الرائع والوصف الدقيق ، لحركات الأحياء ، ونوازع النفوس وهناك النقد اللاذع لأوضاع المجتمع ، وهناك الحديث اللذ الرفيع عن المشاكل السياسية والاجتماعية فى أسلوب قوى أخاذ ، وحسبنا هو من كاتب عبقرى ، ففى كل سطر بل فى كل عبارة لذة ومتعة ربما لا نجدهما فى أبيات كثيرة من الشعر ، وقيمة الأسلوب فى الآثار الأدبية ليست بالقيمة الهينة التى لا يحسب لها حساب ، وقد تكون متعة القارىء بالأسلوب وفائدته منه ، ومن هذه الأشارات العارضة فى ثنايا القصة أجل وأرفع من الفائدة الأساسية التى تهدف القصة للوصول إليها .

ولم أفهم قط المفاضلة بين بيت من الشعر وبين خمسين صفحة من قصة ، فإنه إذا كان الأثران صادرين عن نابغتين ، فلا شك

أن خمسين صفحة من قصة تعطينا من الفوائد أبلغ وأكثر مما يعطينا بيت أو أبيات كثيرة ، وإن كانت القصة ضعيفة ركيكة فلا يصح وزنها ببيت عبقرى ، ولا وجه للمفاضلة حينئذ ، على أنه إذا كان المرجع إلى الفوائد معدودة محسوبة ، فإن الخمسين الصفحة قد تعطينا أكثر من البيت الواحد مهما بلغت من الضعف

أما المقياس الثانى ، فأحسبه ليس كذلك فاصلا ، فالطبقات الدنيا فى الثقافة أو فى الأخلاق لا تروج عندها إلا أنواع خاصة من القصص ليست هى التى يفاضل بينها الكاتب وبين الشعر ، وكما يروج عندهم نوع من القصص رخيص ، كذلك يروج عندهم أنواع من الشعر رخيصة ، على أننا نجد أن ميل العامة ليس دائماً إلى القصص ، فهناك من الأمم ما يميل عامتها وخاصتها إلى الشعر ويروج عندهم ، وهناك أمم يميل عامتها وخاصتها إلى القصص ؛ فميل الطبقات الدنيا ليس حكما فى المفاضلة بين نوع من الآداب ونوع آخر ، وإنما الحكم الفصل فى طبيعة الآداب أنفسها ، ولعلنا نظفر من الكاتب الكبير إلى بيان شاف فى هذا الموضوع الخطير

على العمارى
المدرس بالأزهر

ملك من شعاع

ظاهرة طيبة ، ولا ريب ، بدأنا نلحظها أخيراً ، إذ شرع الكتاب يولون وجوههم شطر مصر القديمة ، ويعدون أبصارهم إلى تاريخها الغابر ، ينهلون منه أدباً جيلاً وقصصاً بارعة ، وأخذوا يستغلون هذا المنجم الذهبى البكر ، ويفرغون كنوزهم فى قوالب تتيح لأهل البلاد وجيرانهم أن يشاركوا الفراعين الأمجاد فيما خلفوه من تراث أبقى على الدهر من تراث الذهب والمال .

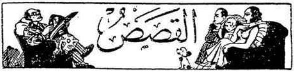
فأصدرت سمو الأميرة شيوه‌كار قصة مصرية عنوانها « نفررس أس » ، وكتب الأستاذ عبد المنعم محمد عمر أمين دار الكتب مسرحية عنوانها « إيزيس وأوزريس » ، وكتب الأستاذ عادل كامل قصة « ملك من شعاع » ، وأخرج الأستاذ على أحمد باكثير مسرحية « الفرعون الموعود » فضلاً عن « أحمس » للأستاذ عبد الحميد جودة السحار و ...

وكتاب « ملك من شعاع » الذى نحن بصدده ، وضعه الأستاذ عادل كامل المحامى واتخذ موضوعه سيرة حياة أخناتون ، أسبق الناس إلى الاعتراف بوجود إله واحد ينبغى أن يعبده الجميع ، وأول من بشر بأن الله الذى خلق الكون وأبدع صوغه لا تنظره العين البشرية المجردة ، وإنما يدركه العقل ويؤمن به القلب . وكان أخناتون أول من جرؤ على هدم الأصنام والتماثيل وتحطيم معابدها ، وجاهد ليحمل شعبه القصير النظر على اعتناق دينه والخروج من أفق الملموسات الضيق إلى عالم اللامرئيات الفسيح . كان أخناتون فرعون مصر عبقرياً يعيش فى عصر لا يؤمن إلا بالحجر والشمس والنجوم ، وكان عليه أن يكافح كفاح الأبطال ليقنع القوم بما يعسر على العقل القاصر إدراكه ، ويعصى على العين رؤيته ، فوفق فى هذه المهمة أولا ، ولكن الشعب سرعان ما تألب عليه بإيعاز من كهنة الأصنام وانقلب عليه يطلب دمه ويحكم عليه بالموت ، وينعته بالخيانة وبيع الوطن ، ولكن المنية عاجلت أخناتون فمات حتف أنفه مغضوباً عليه من شعبه الذى أحبه وأخلص فى خدمته ، مطعوناً فى نزاهته من أصدقائه المقربين ، وعلت شفتيه وهو مسجى فى الفراش هامداً بسمة هادئة عذبة إن عبرت عن شىء فإنما تعبر عن راحة قلبية واطمئنان إلى عدالة القضية التى نافح لنصرتها .

وقد أجاد الأستاذ عادل تحليل التطور الفكرى لأخناتون ، وبين الخطوات التى استطاع أن يصل بها إلى الحقيقة التى غابت عن أذهان معاصريه والسالفين له . وساق القصة ، وهى مزيج نادر من الفلسفة والأدب والمنطق فى أسلوب جيل أخاذ فضلا عن أن المؤلف ضمنها دروساً فى السياسة والاجتماع فقال عن الحرب : « إنها العمى والعرج والبتر والكساح ... إنها الأرملة فقدت زوجها والأم ثكلت ولدها والأخت تبكى أخاها والفتاة تندب حبيبها ... إنها المناحة العظمى تعم أرجاء الوطن ، والشقاء والحزن يخيمان على كل منزل ... إنها المجاعة والذلة والمرض ، حين تخلو الحقول من حارثيها والبيوت من عائليها ، وتنتشر القاذر والخبائث فى كل مكان ... فليست الحرب هى الشرف ، بل هى الغدر والاغتيال والخديعة . أما الوطن فإن من أحبه حقاً كره الحرب . فمن يحب وطنه يسئه أن يسلب وطن غيره ، كما أن من يحب زوجته لا يرنو إلى زوجة جاره » .

إنه كتاب جليل ، ولا غرو ، فقد فاز بالجائزة الممتازة فى مسابقة وزارة المعارف . وقد أحسنت لجنة النشر للجامعيين بنشر هذا الكتاب لأنه سد فراغاً طالما استشعرناه .

وديع فلسطين



جريز يلدا

للقصصى الايطالى بوكاشيو

بقلم الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

كانت عداوة المركيز جواليترى الشاب أمير مقاطعة سالوزو للنساء سافرة ، يجاهر بها هو ، ويعرفنها هن ، لأنه ما كان مؤمناً يوماً بوجود امرأة وفية برة تصدق العهد وترعى الذمة والميثاق ! !

وكان ذلك سبب ابتعاده عنهن وانصرافه إلى ضروب من اللهو بين وحوش الفلا وأزاهير الربى فى عيش رقيق الحواشى ندى الظل ، وغبطة تسرى فى جوانحه وتشيع فى محياه

وإذا كان هذا رأيه هو ، فلم يكن هذا رأى شعبه ، لأن الشعب لم يكن مجمعاً على خيانة المرأة ، ولأن الشعب يريد من يتولى الأمر بعد حاكمه ... هذا إذا جرى قضاء الله عليه فدرج فمات !

لذلك هب أبناء شعبه يطالبونه بالزواج فى إلحاح عليه شديد !

وتقدم إليه فريق من وجوه القوم بأسماء الحسان من بنات الأشراف ليقبل كلمته فى إحداهن ، وألحفوا عليه فى ذلك ، فكان جوابه :

— إنه وحده صاحب الحق فيمن يختارها زوجاً لنفسه ، وأماً لولى عهده ، وإذا كان للشعب أن يطالب حاكمه بولى من بعده ، فليس له أن يتحكم فى التى يختارها لهذا الخلف أماً !

...ثم اتفق معهم على أن يكون أمر اختيار زوجه له ، لاحق لأحد أن يعارضه أو يناقشه فيه ، وهكذا كان :

فإن المركيز لخارج من قصره إلى قرية قريبة منه يختال على جواده ، إذ بصر بقروية من بنات الرعاة تحمل الماء من بئر قريبة إلى دارها فى وداعة أخاذة استوقفته قليلا ، ثم اقترب منها يسألها من عساها تكون ؟ !

— اسمى جريز يلدا يا سيدى !

ووقف المركيز الشاب أمام جريز يلدا هذه دهشاً قد علق قلبه ، وذهل لبه ، واشتغل خاطره ، وأراد أن يكاشفها بدخيلة أمره ، وأنه يرغب فى أن تكون زوجه ، ولكنه ما استطاع ثم حمل نفسه على أن يصارحها برغبته فقال :

— إننى يا جريز يلدا أبحث عن زوج برة مخلصة لينة القيادة ، قريبة الارتياد ، خلقها دمث ، وطاعتى عليها فرض تتقبله فى سرور أفأجد فيك التى أنشد ؟ !

— يا سيدى ، أرجو أن تكون قد وفقت إلى اختيار من تريد !

ثم تم الزواج — كما أراد المركيز أن يكون — فى فخامة وبهاء ، وجاءت الفتاة القروية إلى قصر الأمير لتبتدئ حياة أرستقراطية غريبة عنها وعن قريتها التى أسلمتها إلى هذا القصر المنيف ...

* * *

كانت الفتاة وفية حقاً للمركيز : تتحرى رضاه فتعمل به ، وتتوخى هواه فتقصد إليه ، وتقضى حق النعمة عليها بشكر أياديه وفضله ...

وكانت برة به كما أراد ، مخلصة له كأفضل ما تمنى ... تعمل على إسعاده ، ولو كان فى ذلك شقاؤها ، وتتمنى له الخير ، ولو كان فيه أذاها ... !

وكانت قد وهبته قلبها : فهى أبداً حريصة على رضاه ، حريصة على إسعاده ، حريصة على أن يكون زوجها أسعد الناس حياة ... !

وكان شعب « سالوزو » يبصر هذا من الفتاة الكريمة ، فيعجب بما يرى ، ويغتبط بما يجد أميره من إكرام وحب ووفاء من بنت القرية « جريز يلدا » ... وقد كان هذا الإعجاب الشديد سبب حب الفتاة فى قلوب أهل « سالوزو » أجمعين !

وما لبثت جرِز يلدا أن وضعت بنتاً ... .

فرق الخبر إلى شعب سالوزو ، وابتهج الشعب لهذا وفرح ؛ وأعلن عما فى نفسه من أسباب الفرح والحبور بالاحتفالات يقيمها ، والمآدب يولما ، والتهانى يرفعها إلى أميره ...

ولكن الأمير لم يُثلج بالأمر صدره غبطة – كما توقع الشعب ذلك منه – بل كان فى نفسه ما يحز فيها حزاً من سوء الظن الأثيم ! ... فإن الرجل قد خيل إليه أن من وراء هذا الذى تبديه له زوجه من الحب والوفاء – خيانة مستترة – لا يعلمها هو ، ولكن وجدانه ينبئه ... ولا يعرف عنها شيئاً ، ولكن حسه يوقظه ... وتتعاظم هذه الخواطر فى نفسه فتطغى على كل شعور ... وإذا ما كان فى نفسه عن المرأة قد عاد إليه ... وهل تكون « جرِز يلدا » هذه إلا امرأة ؟ !

وإذاً فليتغلغل إلى دخيلة نفسها ليعرف الحق ، وليمتحنها ليطَّلع على ما عند المرأة من خيانة وفجور ...

... وأرسل إليها يطلب منها ابنتها معلناً أن شعبه لا يرضى أن تكون ولية العهد بنتاً من أم وضيعة الأصل ، حقيرة البيت ، من أهل القرى ...

وفهمت هذا الذى كان يدور بخلده – وما كان ذلك ليخفى عليها – وأدركت أنها مفارقة ابنتها البريئة ، ثمرة إخلاصها ووفائها وتفانيها فى الحب لمولاها وزوجها المركيز – فراقاً لا تعلم مداه ... بل قد لا يكون له مدى يقدر ، أو نهاية تعرف !

... وألم بالسكينة الجزع فى شكل الثكل ، وملكتها غموم الوالدة تفقد وحيدها ، فاشتملت عليها ، وتشعبتها آلام الفجيعة فى شكل مريع ... ولما رأت أن الأمر قد تعقد وأعضل ، ودعت ابنتها فى لوعة مريرة ويأس ... ثم تقدمت بها إلى الرسول .

* * *

ومضت بعد ذلك أعوام طوال كانت « جرِز يلدا » مع زوجها على سيرتها الأولى : من طاعة وحب ووفاء ... وصبر على ما تلقاه منه من مكروه ! ثم قدر الله فوضعت ولداً ...

وكان لهذا الوضع أثره فى نفسها المحزونة ، فقد أملت منه خيراً يأتيها به أبوه ... وقالت فى نفسها : إن الشفاعة من ولى العهد ولا شك ، وكيف تشك وها قد وضعت ذكراً ينوب فى حكم الشعب مناب أبيه ؟ وكيف تشك وهذه أمنية المركيز التى يطلب ، ومراده الذى يبتغى – هو ومن ورائه شعب « سالوزو » الكريم ؟ !

ولم يدعها المركيز « جو التيرى » تحلم ... وتبتعد فى حلمها عن الواقع المقدر لها ولابنها هذا ... فقد بعث يطلبه كما بعث من قبل يطلب أخته !

وتكرر فصل « المأساة » ولكن فى مظهر أروع ، وأعيد الحزن إلى قلب المسكينة ولكن فى شكل أقسى ؛ وقدمت المسكينة طفلها هذا كما قدمت أخته من قبل إلى الرسول !

وإذا كان جرو السبع لا ينفعه رضاع الشاة ... وإذا كان النبت لا يُقوّم اعوجاجه حين يشتد عوده ويستأسد ، فإن المركيز لم يكن ينفعه تفانى المرأة فى إخلاصها وإظهار طاعتها له ... والطباع إذا كان فيها عوج متأصل ، لا تفيدها كل أنواع المقومات !

... وكذلك صبرت « جرِز يلدا » على الخسف ستة عشر عاماً طوالا ، كانت خلالها مثال العفة فى الخدمة ، والشرف فى أداء حقوق الزوج ، صابرة على ما تلقاه من هذا الذى يدعوه زوجها ، وليس فى قلبه من معانى الزوجية التى تعتمد على الشرف والإخلاص شىء !

وعلى أن الحزن المض لا يقوى على احتماله بشر له قلب وشعور ، فإن « جرِز يلدا » كانت تحتمل ما تلقاه فى جلد واحتمال عجيب ، كأن ما تراه من عقوق ، هو عين الحق الذى يجب أن تُعامل به الوفيات أمثالها ...

ولكن زوجها المركيز لم يرضه هذا ... بل عمد إلى طردها من قصره إلى حيث كانت فى كوخها الريفى الحقير ...

وخرجت « جرِز يلدا » فى أطمار بالية من القصر كما دخلته من قبل ؛ ورجعت إلى كوخها وليس معها من آثار النعمة التى كانت فيها غير ... أسوأ الذكريات ، وغير ما فى قلبها المكلوم من حزوز ...

ولكنها لا تكاد تستقر فى ريفها حتى يأتيها رسول « المركيز » يأمرها بالرجوع إليه .

لتُعدّ قصره الذى يرحته لزواج جديد ! .. من حسناء من بنات الأشراف ...

ونزل عليها الخبر كالمصيبة تنال المرء بعد كثير بين أمثالها ؛ لا تكاد تستقر واحدة حتى تتلوها الأخرى أشد إيلاماً وأفجع !

... ورجعت إلى القصر وإن قلبها لجازع من هذا الذى يرى؛ ولكن ستاراً من الابتسامات العذاب كان ينسدل على ذلك القلب الكسير فيخفى ما به من آثار اللوعة والشقاء ...

وتمّ إعداد القصر للزواج الجديد ...

وتمت دعوة الأشراف والنبلاء إليه فى ليلة الزفاف ...

فكان القصر ليلتئذ بحسناواته ومظاهر المسرة فيه جذوة من اللهب تتقد فى قلب جرز يلدا التى كانت تتغشى طمراً أبلاه الدهر وأخلقه ... قابعة فى زاوية من زوايا القصر ، خانسة ، فكأنها فى ذلك القصر المائج بالغيد الفاتنات تمثال البؤس الذى يتحاشى المترفون النظر إليه ... أن يشقيهم أو يكدر صفو حياتهم التى يحيون ! !

* * *

ورفعت «جرز يلدا» عينيها إلى العروسين الداخلين فاحتارت مما رأت ... لقد كانت ، فى يوم من الأيام ، كهذه الحسناء التى تتيه بجمالها للفتان وتزهى ... لقد كانت يوماً قبلة الأعين تستجلى جمال وجهها الباهر السنى فى إعجاب شديد !

... وجاء « المركيز » إلى زوجه القديمة البائسة يسألها رأيها – على ملأ من الحاضرين – فى عروسه الحسناء ؟ ! فأجابت :

إن فى منظرها – يا سيدى – لحسناً ... وأرجو أن يكون لها مثل ذلك فى مخبرها عند الامتحان ... ثم توسلت إليه أن يكون منصفاً لهذه الفتاة يعاملها فى رفق وإحسان ... وأردفت ذلك بجمل الدعاء والتوفيق لها ... ولعلها ساعتئذ كانت أصدق ما تكون ...

قال المركيز :

– « ولكن اغتفرى لى يا « جرز يلدا » هذا الذى رأيته منى من جور وكفران ... لم أكن معك يافتاتى من المنصفين ... لقد كنت أتهم وفاءك ، خائفاً أن تكون وراءه خيانة أو ريبة ... ولكنك الآن أمامى مجلوّة مثل كرائم الأحجار ...

« دعينى – يازوجى البرة – أقدم إليك هذه التى تحسبينها عروسى كما يحسبها غيرك من الحاضرين – على أنها .. ابنتك التى انتزعتها منك منذ أمد بعيد ... وهذا يا جرز يلدا المحبوبة ولدنا العزيز الذى أرسلت إليك فى طلبه كما أرسلت من قبل على أخته ... ضميهما إليك ... إلى صدرك ... لتقرى بذلك عيناً ولتكونى من الفرحات الناعمات ... لقد حُرمتهما حيناً من الدهر طويلا ... فانعمى بعد ذاك الحرمان الطويل ... أقبلى عليهما التمسى العزاء عندهما عما مضى وكونى – كما عهدتك – تصفحين عن الإساءة وتقبلين منى كل شىء بالصدر الرحب ، والغفران »

(بغداد) **فخرى شهاب السعيدى**